

خطب ونصائح
كلمات ومقالات

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

طبع على نفقة بعض المحسنين
جزاهم الله خيراً وأعظم لهم المثوبة

دار المغني للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار المغني للنشر والتوزيع ، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدر، عبدالرزاق بن عبدالمحسن

الفوائد المنثورة : خطب ونصائح، كلمات ومقالات./

عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر - الرياض ، ١٤٢٥هـ.

٢٠٨ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ١ - ٤٩ - ٧٦٢ - ٩٩٦٠

١ - خطبة الجمعة ٢ - الخطب الدينية

٣ - الوعظ والإرشاد أ - العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٢٥/٣٣٣٦

رقم الإيداع : ١٤٢٥/٣٣٣٦

ردمك : ١ - ٤٩ - ٧٦٢ - ٩٩٦٠

دار المغني للنشر والتوزيع

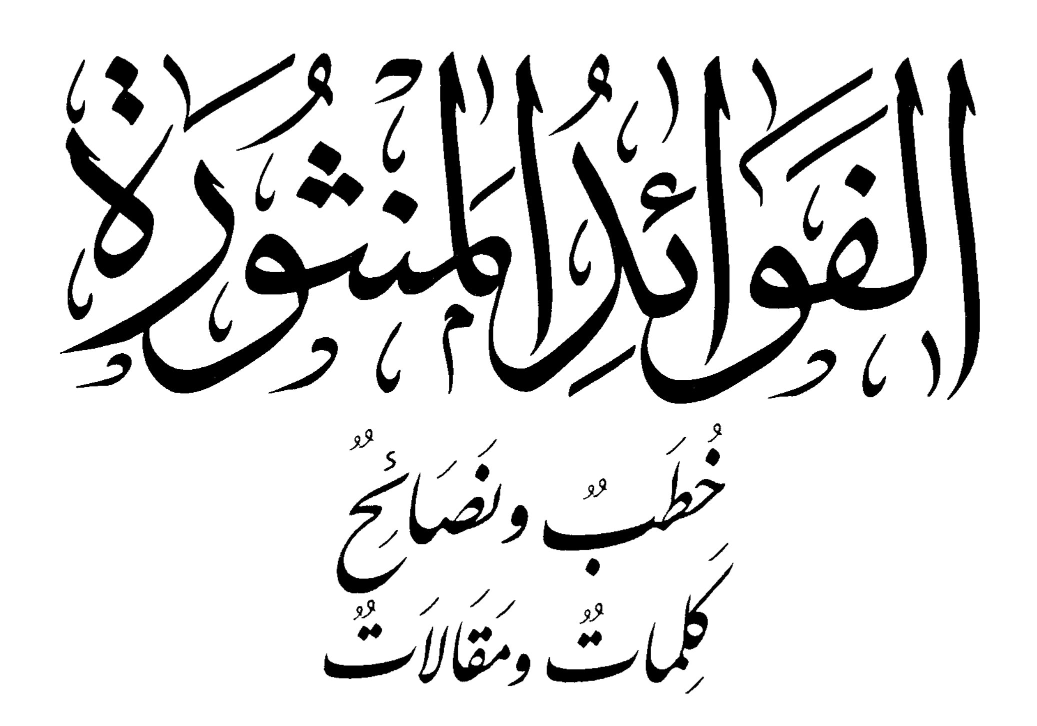
هاتف - ناسوخ : ٠٠٩٦٦ ١ ٤٢٥٧٠١٩

ص . ب ١٥٤٠٤١ الرياض ١١٧٤٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

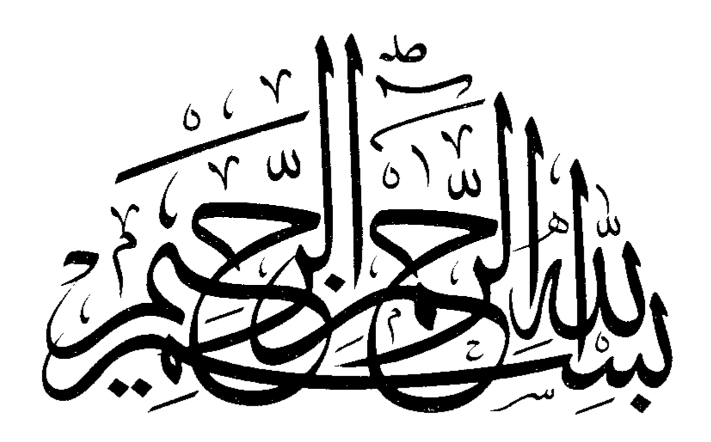


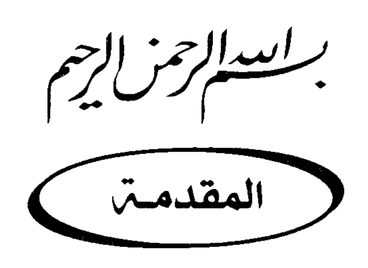
إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

طبع على نفقة بعض المحسنين
جزاهم الله خيراً وأعظم لهم المثوبة

دار المغني للنشر والتوزيع





المقدمة

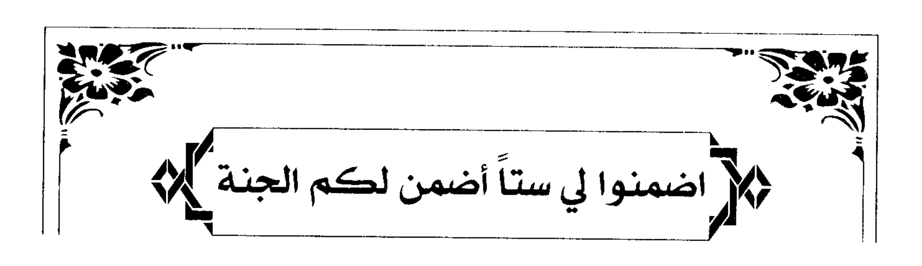
الحمد لله عظيم الإحسان، واسع الفضل والجود والامتنان، أحمده سبحانه على جزيل نعمائه ووافر فضله وكريم عطائه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله الحق المبين، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله الداعي إلى صراط الله المستقيم صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذا مجموع يحوي جملة من الخطب والنصائح وعدداً من الكلمات والمقالات، جرى إعدادها في أوقات متفاوتة وأزمنة متباعدة رأيت من المفيد لمّها في هذا المجموع رجاءَ أن ينفع اللهُ بها، مع اعتراف مني بالقصور وعدم الأهلية، ولي أمل بالله سبحانه أن يبارك فيه وأن يجعله نافعاً لعباده المؤمنين، فإنه وحده وليُّ التوفيق، لا رب سواه، ولا إلٰه إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا به، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله ومصطفاه نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

في ١٤٢٥/٤/٢٢هـ



اضمنوا لي ستاً أضمن لكم الجنة

إنَّ من المعروف لدى الجميع أنَّ لغة الضمان تجد في أوساط الناس اهتماماً بالغاً وعنايةً كبيرةً، في بيعهم وشرائهم وعموم تجاراتهم، فليست السلعُ المضمونة، والبضائع التي عليها ضمانات، في المكانة لدى الناس، كالسلع التي ليس عليها ضمان، وهذا يؤكد شدة اهتمام الناس بالشيء المضمون، أكثر من غيره مما ليس كذلك، على تفاوت كبير فيها من حيث مصداقيتُها، ولهذا يشتد اهتمام الناس بهذا الأمر أكثر، إذا كان صاحبُ الضمان معروفاً بالصدق، متحلياً بالوفاء والأمانة، وكانت الأمور التي ينال بها الضمان أموراً يسيرة سهلة، لا تُلحق الناس شططاً، ولا تُكلفهم عنتاً.

فكيف إذا كان الضامنُ رسول الله ﷺ الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وكيف إذا كان المضمونُ جنةً عرضها السماء والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وكيف إذا كانت الأمور التي يُنال بها هذا الضمانُ أموراً سهلة وأعمالاً يسيرة، لا تتطلب جهداً عظيماً ولا كبيرَ مشقة. فتأملوا ـ رعاكم الله ـ نص هذا الضمان العظيم:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**اضمَنُوا لي ستّاً من أنفُسِكُم، أضمَنْ لكمُ الجنة: اصدُقُوا إذا حَدَّثتُم، وأَوفُوا إذا وَعَدْتُم، وأَدُّوا إذا اؤتُمِنْتُم، واحفَظُوا فروجَكُم، وغُضُّوا أبصارَكُم،**

وكُفُّوا أيديَكُم»[1].

إنَّه ضمانٌ بضمانٍ ووفاءٌ بوفاءٍ «**اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة**» ستاً من الأعمال ما أيسرها، وأموراً من أبواب الخير ما أخفّها وأسهلها، من قام بها في حياته، وحافظ عليها إلى مماته، فالجنة له مضمونة، وسبيله إليها مؤكدة مأمونة ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٥].

١ ـ فأمّا الخصلة الأولى من هذه الخصال فهي: الصدق في الحديث، فالمؤمن صادق في حديثه، لا يعرف الكذب إليه سبيلاً، ولا يزال محافظاً على الصدق في حياته إلى أن يفضي به صدقه إلى الجنة، وفي الحديث «**عليكم بالصدق، فإنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، والبرَّ يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجلُ يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً**»[2].

٢ ـ وأمّا الخصلة الثانية فهي الوفاءُ بالوعد والالتزام بالعهد، وهي سمة من سمات المؤمنين، وعلامةٌ من علامات المتقين، فهم لا يعرفون خلفاً في الوعود ولا نقضاً للعهود، والوفاء صفة أساسية في بنية المجتمع المسلم، حيث تشمل سائر المعاملات. فالمعاملات كلُّها والعلاقاتُ الاجتماعية والوعود والعهود تتوقف على الوفاء، فإذا انعدم الوفاء انعدمت الثقة وساء التعامل وساد التنافر.

٣ ـ وأمّا الخصلة الثالثة فهي أداء الأمانة، وهي من أعظم

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٢٣)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٠١٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الصفات الخُلُقية التي مدح الله أهلها وأثنى على القائمين بها، وهي من كمال إيمان المرء وحسنِ إسلامه، وبالأمانة يُحفظ الدينُ والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والعلوم وغير ذلك. وفي الحديث «**المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم**»[1]. وإذا سادت الأمانة في المجتمع عظُمَ تماسكه، وقوي ترابطه، وعَمَّ فيه الخير والبركة.

٤ ـ وأمَّا الخصلة الرابعة فهي حفظ الفروج، أي: من أن تفعل الحرام أو تقع في الباطل ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧]. وفي حفظ الفروج حفظ للنسل، ومحافظةٌ على الأنساب، وطهارة للمجتمع، وسلامةٌ من الآفات والأمراض.

٥ ـ والخصلة الخامسة من هذه الخصال العظيمة هي غض البصر أي من النظر إلى الحرام، والله يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٣٤) عن فَضَالَةَ بن عُبَيْدٍ رضي الله عنه. وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٧٨).

ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١].

وغض البصر فوائده عظيمة، فهو يورث العبدَ حلاوة الإيمان ونور الفؤاد، وقوة القلب، وزكاء النفس وصلاحها، وفيه وقاية من التطلع للحرام والتشوف للباطل.

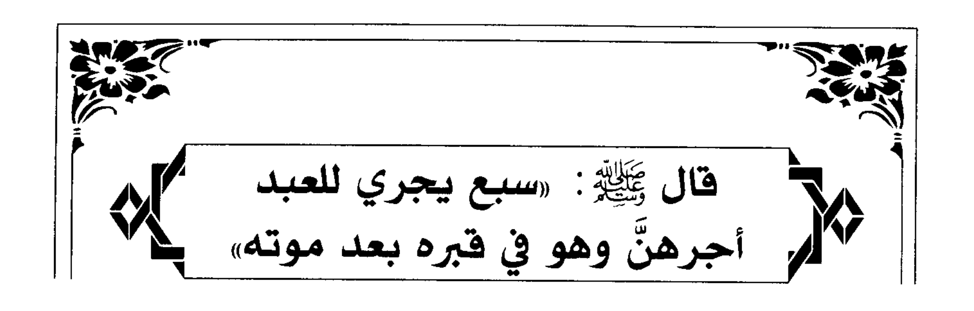
٦ ـ وأمّا الخصلة السادسة فهي كف الأيدي، أي عن إيذاء الناس أو الاعتداءِ عليهم أو التعرض لهم بسوء، والمؤذي لعباد الله يمقته الله ويمقته الناس وينبذه المجتمع، وهو دليل على سوء الأخلاق وانحطاط الآداب. وإذا كف الإنسان أذاه عن الناس دل ذلك على نبيل أخلاقه وكريم آدابه وطيب معاملته، وحظي بعظيم موعود الله في ذلك، فكيف إذا سما خلق الإنسان وعظم أدبه؟! ولم يكتفِ بذلك، حتى أماط الأذى عن سبيل المؤمنين وجادتهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مر رجلٌ بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأنحينَّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة**»[1].

فهذه أبواب الجنة مشرعةٌ، ومنارتها ظاهرةٌ، وسبيلها ميسرةٌ، فلنغتنم ذلك قبل الفوات، ولنستكثر لأنفسنا من الخير قبل الممات.

أعاننا الله جميعاً على القيام بذلك، ووفقنا لكلِّ الخير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



(١) رواه مسلم [١٢٨ ـ (١٩١٤)] بعد الحديث (٢٦١٧).



إنَّ من عظيم نعمة الله على عباده المؤمنين أن هيأ لهم أبواباً من البر والخير والإحسان عديدة، يقوم بها العبدُ الموفق في هذه الحياة. ويجري ثوابها عليه بعد الممات، فأهل القبور في قبورهم مرتهنون، وعن الأعمال منقطعون، وعلى ما قدموا في حياتهم محاسبون ومجزيون، بينما هذا الموفق في قبره الحسناتُ عليه متواليةٌ، والأجورُ والأفضال عليه متتاليةٌ، ينتقل من دار العمل، ولا ينقطعُ عنه الثواب، تزدادُ درجاته، وتتنامى حسناتهُ، وتتضاعفُ أجورُهُ وهو في قبره، فما أكرمها من حالٍ، وما أجمله وأطيبه من مآلٍ.

وقد ذكر النبيُّ ﷺ أموراً سبعةً يجري ثوابُها على الإنسان في قبره بعد ما يموت.

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرهُنَّ، وَهْوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْماً، أَوْ أَجْرَى نَهراً، أَوْ حَفَرَ بِئْراً، أَوْ غَرَسَ نَخْلاً، أَوْ بَنَى مَسْجِداً، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفاً، أَوْ تَرَكَ وَلَداً يسْتَغْفرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»**(1).

وتأمل أخي المسلم ملياً هذه الأعمال، واحرص على أن يكون

(1) رواه البزار «كشف الأستار» (١٤٩)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٦٠٢).

لك منها حظٌّ ونصيبٌ ما دمت في دار الإمهال، وبادر إليها أشدَّ المبادرة قبل أن تنقضي الأعمار وتتصرم الآجال.

وإليك بعض البيان والإيضاح لهذه الأعمال:

أولاً: **تعليم العلم**، والمراد بالعلم هنا العلم النافع الذي يبصِّر الناس بدينهم، ويعرفهم بربهم ومعبودهم، ويهديهم إلى صراطه المستقيم، العلم الذي به يُعرف الهدى من الضلال، والحق من الباطل، والحلال من الحرام، وهنا يتبينُ عظمُ فضلِ العلماءِ الناصحين والدعاةِ المخلصين، الذين هم في الحقيقة سراج العباد، ومنارُ البلاد، وقوامُ الأمة، وينابيع الحكمة، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة؛ فهم يعلِّمون الجاهل، ويذكِّرون الغافل، ويرشدون الضال، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة، وعندما يموت الواحد منهم تبقى علومُهُ بين الناس موروثةً، ومؤلفاته وأقواله بينهم متداولةً، منها يفيدون، وعنها يأخذون، وهو في قبره تتوالى عليه الأجور، ويتتابع عليه الثواب، وقديماً كانوا يقولون: يموت العالم ويبقى كتابه، بينما الآن صوت العالم يبقى مسجلاً في الأشرطة المشتملة على دروسه العلمية، ومحاضراته النافعة، وخطبة القيمة فينتفع به أجيالٌ لم يعاصروه ولم يكتب لهم لُقيُّهُ. ومن يساهم في طباعة الكتب النافعة، ونشر المؤلفات المفيدة، وتوزيع الأشرطة العلمية والدعوية، فله حظٌّ وافرٌ من ذلك الأجر إن شاء الله.

ثانياً: **إجراءُ النَّهر**، والمرادُ شقُ جداول الماء من العيون والأنهار؛ لكي تصل المياه إلى أماكن الناس ومزارعهم، فيرتوي الناسُ، وتُسقى الزروعُ، وتَشرب الماشيةُ، وكم في مثل هذا العمل الجليل والتصرف النبيل من الإحسان إلى الناس، والتنفيسِ عنهم بتيسير حصول الماء الذي به تكون الحياة، بل هو أهم مقوماتها،

ويلتحق بهذا مدُّ الماء عبر الأنابيب إلى أماكن الناس، وكذلك وضعُ برادات الماء في طرقهم ومواطن حاجاتهم.

ثالثاً: حفر الآبار، وهو نظيرُ ما سبق، وقد جاء في السنة عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**بينما رجلٌ بطريقٍ فاشتدَّ عليه العطشُ، فوجدَ بئراً فنزلَ فيها فشربَ، ثم خرجَ، فإذا كلبٌ يلهثُ يأكلُ الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغَ هذا الكلبَ من العطشِ مثلُ الذي كان بلغَ مني، فنزلَ البئرَ فملأَ خفَّه ماءً فسقى الكلبَ، فشكرَ اللهُ له فغفرَ له**» قالوا: يا رسولَ اللهِ، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: «**في كلِّ ذاتِ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ**»[1]. فكيف إذاً بمن حفر البئر وتسبب في وجودها حتى ارتوى منها خلقٌ، وانتفع بها كثيرون.

رابعاً: غرسُ النخل، ومن المعلوم أنَّ النخل سيدُ الأشجار وأفضلُها وأنفعُها وأكثرُها عائدةً على الناس، فمن غرسَ نخلاً وسَبَّل ثمره للمسلمين، فإنَّ أجره يستمرُّ كلَّما طعم من ثمره طاعم، وكلَّما انتفع بنخله منتفع من إنسانٍ أو حيوانٍ، وهكذا الشأن في غرس كلِّ ما ينفعُ الناس من الأشجار، وإنما خُص النخل هنا بالذكر لفضله وتميزه.

خامساً: بناءُ المساجد التي هي أحبُّ البقاع إلى الله، والتي أذِنَ اللهُ ـ جلا وعلا ـ أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وإذا بُني المسجدُ أقيمت فيه الصلاة، وتُلي فيه القرآن، وذكر فيه الله، ونشر فيه العلم، واجتمع فيه المسلمون إلى غير ذلك من المصالح العظيمة، ولبانيه أجرٌ في ذلك كلِّه.

عن عثمانَ بنِ عفّانَ رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**من**

---

(١) رواه البخاري (٢٤٦٦)، ومسلم (٢٢٤٤).

بنَى مسجداً يبتغي به وجهَ اللهِ، بنَى اللهُ له مثلَهُ في الجنَّةِ»[1].

سادساً: توريثُ المُصْحَف، وذلك يكون بطباعة المصاحف أو شرائها ووقفها في المساجد، ودور العلم حتى يستفيد منها المسلمون، ولواقفها أجرٌ عظيمٌ كلَّما تلا في ذلك المصحف تالٍ، وكلَّما تدبر فيه متدبر، وكلَّما عمل بما فيه عامل.

سابعاً: تربيةُ الأبناء، وحسنُ تأديبهم، والحرصُ على تنشأتهم على التقوى والصلاح، حتى يكونوا أبناءً بررةً وأولاداً صالحين، فيدعون لأبويهم بالخير، ويسألون الله لهما الرحمة والمغفرة، فإنَّ هذا مما ينتفع به الميت في قبره.

وقد ورد في الباب في معنى الحديث المتقدم، ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ ممَّا يلحَقُ المؤمنَ من عملِهِ وحسناتِهِ بعدَ موتِهِ: علماً علَّمَهُ ونشَرَهُ، وولداً صالحاً تركَهُ، ومصحفاً ورَّثَهُ، أو مسجداً بناهُ، أو بيتاً لابنِ السبيلِ بناهُ، أو نهراً أجراه، أو صدقةً أخرجَها من مالِهِ في صحَّتِهِ وحياتِهِ يلحَقُهُ من بعدِ موتِهِ**»[2].

وعن أبي أمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَرْبَعَةٌ تَجْرِي عَلَيْهِم أُجُورُهُمْ بَعْدَ المَوْتِ: مَنْ مَاتَ مُرَابِطاً فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَمَنْ عَلَّمَ عِلْماً أُجْرِيَ لَهُ عَمَلُهُ مَا عَمِلَ بِهِ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَجْرُهَا يَجْرِي لَهُ مَا وُجِدَت، وَرَجُلٌ تَرَكَ وَلَداً صَالِحَاً فَهُوَ يَدْعُو لَهُ**»[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٢)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٩٨).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١)، والطبراني (٧٨٣١). وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٨٧٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا ماتَ الإنسانُ انقطَعَ عنه عملُهُ إلَّا من ثلاثةٍ: إلَّا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»[1].

وقد فسر جماعةٌ من أهل العلم الصدقةَ الجارية بأنَّها الأوقاف، وهي أن يُحَبَّسَ الأصلُ وتسبلَ منفعته، وجُلُّ الخصالِ المتقدمة داخلةٌ في الصدقة الجارية. وقوله: «**أو بيتاً لابن السبيل بناه**» فيه فضلُ بناء الدور ووقفها ليتنفع بها المسلمون سواءٌ ابنُ السبيل أو طلابُ العلم، أو الأيتامُ، أو الأراملُ، أو الفقراء والمساكين. وكم في هذا من الخير والإحسان.

وقد تحصل بما تقدم جملةٌ من الأعمال المباركة، إذا قام بها العبدُ في حياته جرى له ثوابُها بعد الممات، وقد نظمها السيوطيُّ في أبيات فقال:

إذا مات ابنُ آدم ليس يجري ... عليه من فِعَالٍ غيرُ عشرِ
علومٌ بثها، ودعاءُ نَجْلِ ... وغَرْسُ النخلِ، والصدقاتُ تجري
وراثةُ مُصْحَفٍ، ورباطُ ثغر ... وحَفْرُ البئر، أو إجراءُ نهرِ
وبيتٌ للغريب بناه يأوي ... إليه، أو بناءُ مَحَلِّ ذكرِ

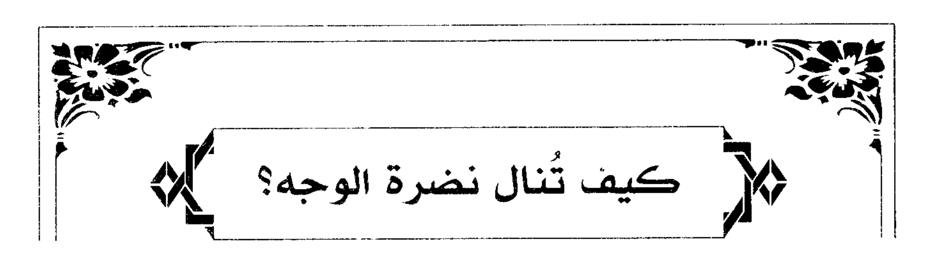
وقوله: «**ورباط ثغر**» شاهده حديث أبي أمامة المتقدم، وحديث سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**رباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامه. وإنْ ماتَ جَرَى عليه عملُهُ الذي كانَ يعملُهُ، وأُجرِيَ عليه رزقُهُ، وأمنَ الفتَّانَ**»[2] أي ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر.

ونسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يوفقنا لكلِّ خير، وأن يعيننا على القيام بأبواب الإحسان، وأن يهدينا سواءَ السبيل.

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

(٢) رواه مسلم (١٩١٣).



كيف تُنال نضرة الوجه؟

إنَّ خيرَ ما عمرت به الأوقات، وصُرفت فيه الأنفاس الاشتغال بالعلم الشرعي، ومدارسة الكتاب والسنة، فإنَّ في ذلك أنسَ النفوس وراحة القلوب وطمأنينة البال، وبه يُعرف الحقُّ من الباطل، والحلال من الحرام، والهدى من الضلال، وبه يسير المرءُ إلى الله على بصيرة بخطىً ثابتة وقلب مطمئنٍّ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

لقد ثبت عن النبي ﷺ الدعاءُ لمن سمع كلامَه ووعاه وبلغه كما سمعه بالنضرة، وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه، ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**نضَّر الله امرَءاً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغلّ عليهنَّ قلب مسلم: إخلاصُ العمل لله، ومناصحةُ أئمة المسلمين، وملازمة جماعتهم؛ فإنَّ دعوتَهم تحيط من ورائهم**»[1]. وقد رواه عن النبي ﷺ أكثرُ من عشرين صحابياً، منهم: ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وجبير بن مطعم، وأنس بن مالك، وزيد بن ثابت، والنعمان بن بشير، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، ولذا عدَّه غيرُ واحد من أهل العلم في جملة الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ.

وقد تضمَّن هذا الحديثُ ـ كما بسط ذلك وبيَّنه العلاَّمة ابن

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٢)، وأحمد (١/٤٣٧)، وابن حبان (٦٦). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

القيم رحمه الله[1] ـ دعوةً مباركة ميمونة، خصَّ بها رسولُ الله ﷺ مَن سمع حديثَه ووعاه وبلَّغه كما سمعه، ولو لم يكن في فضل العلم وبيان شرفه إلَّا هذا الحديث وحده لكفى به شرفاً؛ فإنَّ هذه الدعوةَ النبوية الكريمة المباركة متضمِّنةٌ لجمال الظاهر والباطن، فإنّ النضرةَ هي البهجةُ والحسن الذي يُكساه الوجه من آثار الإيمان، وابتهاجُ الباطن به وفرحُ القلب وسروره والتذاذه به، فتظهرُ هذه البهجةُ والسرور والفرحة نضارةً على الوجه، ولهذا يجمع له سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة كما في قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ [الإنسان: ١١]، فالنضرة في وجوههم والسرور في قلوبهم، ثمّ ما يتلقَّون من نعيم وثواب على ذلك يظهر نضارة على وجوههم، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤﴾ [المطففين: ٢٤]، ولا ريب أنَّ هذه الدعوة المباركة لمن حمل السنة وبلَّغها للأمة بالنضرة والرحمة، تحمل البشارة لمن وقف نفسه ووفَّر جهده في خدمة السنة وإبلاغها، وفي هذا حفزٌ للهمم وإذكاء للعزائم وحملٌ للنفوس على الجدِّ والمثابرة والصبر والمصابرة وبذل الوسع في تحقيق ذلك.

وقد دلّ الحديث على أنَّ للعلم الذي استحقَّ أهلُه هذه البشارة أربعَ مراتب:

أولُها وثانيها: سماعه وعقله، فإذا سمعه ووعاه بقلبه، أي عَقِلَهُ واستقرَّ في قلبه كما يستقرُّ الشيءُ الذي يوعى في وعائه ولا يخرج منه، وكذلك عقله هو بمنزلة عقال البعير والدابة ونحوها حتى لا تشردَ وتذهب.

---

(١) في كتابه «مفتاح دار السعادة» (١/ ٧١)، وما بعدها.

والمرتبة الثالثة: تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب.

والمرتبة الرابعة: تبليغه وبثُّه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده، وهو بثُّه في الأمة، فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا يُنفَق منه وهو معرَّض لذهابه، فإنَّ العلم ما لم يُنفق منه ويُعلَّم فإنّه يوشك أن يذهب، فإذا أُنفق منه نما وزكا على الإنفاق.

ولمّا كان هذا الثواب العظيم لمن بلغ سنة رسول الله ﷺ يفتقر كسائر الأعمال إلى الإخلاص لله وعقد النية على النصح للمسلمين ولزوم جماعتهم، عقَّب ﷺ دعوتَه الميمونة المباركة لمبلِّغي سنَّته بما يدلُّ على أهميَّة الإخلاص في الأعمال لله والنصح للمسلمين ولزوم جماعتهم بقوله: «**ثلاث لا يغل عليهنَّ قلب مسلم: إخلاصُ العمل لله، والنصحُ لائمَّة المسلمين، ولزومُ جماعتهم**»، قال ذلك ﷺ؛ لأنَّ هذه الخصال الثلاثَ تُستصلح بها القلوب وتهذّب بها النفوس، وباستشعارها وعقد القلب عليها يكون المسلم جديراً بتحصيل الثواب الجزيل والأجر العظيم المذكور في الحديث.

وفي قوله ﷺ في الحديث: «**ثلاث لا يغل عليهنَّ قلب مسلم...**» دلالةٌ على أنَّ قلب المسلم لا يحمل الغلَّ ولا يبقى فيه الغش، إذا كان متَّصفاً بهذه الصفات الثلاثة المذكورة في الحديث؛ لأنَّها تنفي الغشَّ وتبعده من القلب.

فالمخلص لله إخلاصُه يمنع غلَّ قلبه ويخرجه ويزيله جملةً؛ لأنَّه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربِّه وطلب ثوابه، فلم يبق فيه موضع للغلِّ والغشِّ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فلمَّا أخلص لربِّه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء، ولهذا لمّا علم إبليس أنَّه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شَرطته التي اشترطها

للغواية والإهلاك، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

فالإخلاص هو سبيل الخلاص، والإسلام مركبُ السلامة، والإيمان صِمَامُ الأمان.

وقوله ﷺ في الحديث: «**ومناصحة أئمَّة المسلمين**» هذا أيضاً منافٍ للغلِّ والغش، فإنَّ النصيحة لولاة الأمر لا تجامع الغل إذ هي ضدُّه، فمَن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل، والنصح لأولي الأمر من المسلمين إنَّما يكون بالسمع والطاعة لهم في المنشط والمكره أبراراً كانوا أو فجَّاراً، وإنَّما الطاعة في المعروف، فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة لملخوق في معصية الخالق، وإرشادهم للخير وترغيبهم فيه وتحذيرهم من الشر وتنفيرهم منه، والدعاء لهم بالصلاح والمعافاة، وعدم الدعاء عليهم، والحذر من نزع يد الطاعة أو قتالهم أو الخروج عليهم لمنافاة ذلك للنصيحة؛ لأنَّ جماع النصيحة هي عناية القلب للمنصوح له كائناً مَن كان.

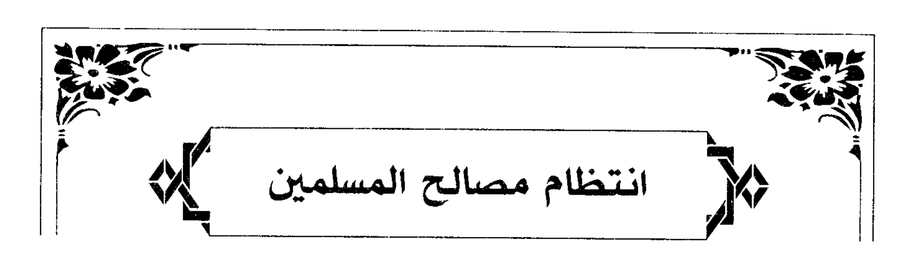
وقوله ﷺ في الحديث: «**ولزوم جماعتهم**» هذا أيضاً ممَّا يطهِّر القلب من الغلِّ والغش، فإنَّ صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسرُّه ما يسرُّهم، مع الموافقة لهم في العقيدة والعمل، والحذر من الخروج عن زمرتهم؛ لئلَّا تتلقَّفه الشياطين التي تعمل في الإنسان أعظمَ من عمل الذئاب فيما يندُّ من الغنم.

وقوله ﷺ في الحديث: «**فإنَّ دعوتَهم تحيط من ورائهم**» هو من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى، حيث شبَّه دعوةَ المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم، المانع من دخول عدوِّهم عليهم، فتلك

الدعوةُ التي هي دعوة الإسلام ـ وهم داخلوها ـ لمَّا كانت سوراً وسياجاً عليهم، أخبر ﷺ أنَّ من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمع شمل الأمة، وتلمُّ شعثَها وتحيط بها، فمَن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته، وبذلك أيضاً يكون للمسلم الملازم لجماعة المسلمين نصيبٌ من دعواتهم الطيبة التي تصدر من آحادهم شاملة لعمومهم.

والله وحده المسؤول والمرغوب إليه والمأمول أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه موافقة لسنة نبيِّه محمد ﷺ، وأن يوفِّقنا للنصيحة للمسلمين جميعهم أئمَّتهم وعامتهم، وأن يرزقنا لزوم جماعتهم، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنَّه هو الغفور الرحيم.





انتظام مصالح المسلمين

إن من نعمة الله علينا بهذا الدين القويم أن جعله سبحانه مباركاً على أهله، به تنتظم أمورهم، وتجتمع كلمتهم، ويلتئم شملهم، ويتحد صفهم، وتقوى شوكتهم، وتتحقق مصالحهم، وبه تندفع عنهم الشرورُ والآفات، وتزول عنهم المحنُ والرزيات، محققاً لهم السعادة والطمأنينة، والتمكين والعز، والقوة والمهابة، والفوز والفلاح.

وليس شيء من ذلك متحققاً لأمة الإسلام إلا بتمسُّك صادق واعتصام جاد بحبل الله المتين ودينه القويم وصراطه المستقيم.

ولنقف هنا مع حديث عظيم ثابت عن رسولنا الكريم ﷺ يبينُ فيه ﷺ الجادة السوية، والنهج السديد، لانتظام مصالح المسلمين واستقامة أمرهم، ويحذرُ فيه من المسالك المنحرفة، والطرائق المعوجة، التي لا يؤمن معها العثار، ولا تجلب للمسلمين إلا الأضرار والأخطار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ، فَمَاتَ، مَاتَ مِيْتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ. وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّها وفاجِرها، ولا يَتَحاشا مِنْ مُؤمِنِها، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ»**[1].

وقد تضمن هذا الحديث ثلاث وصايا حكيمة يجدر بالمسلم

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٨).

أن يتأملها وأن يجد ويجتهد في تحقيقها وتطبيقها.

الوصية الأولى: السمعُ والطاعة لولاة أمر المسلمينَ والنصحُ لهم، وعدمُ الخروج عليهم ونزعِ اليد من طاعتهم، والحذرُ من مفارقة جماعتهم، ومن خالف ذلك فمات مات ميتة جاهلية، ويجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها فإن بني آدم لا تتم مصالحهم إلا بالاجتماع، ولا بدّ لهم عند الاجتماع من رأس وأمير، ولا إمرة إلا بالسمع والطاعة، وولاة الأمر بإذن الله بهم تنتظم مصالح المسلمين وتجتمع كلمتهم، وتؤمن سبلهم وتُقام صلاتهم ويجاهد عدوهم، وبدونهم تتعطل الأحكام وتعمّ الفوضى ويختلّ الأمن ويَكْثر السلب والنهب وأنواع الاعتداء وينثلم صرح الإسلام ولا يأمن الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

والواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرّب بها إلى الله مع النصح للولاة والدعاء لهم بالتوفيق والسداد والصلاح والعافية والحذر من سبهم والطعن فيهم وغشهم، وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا تَسُبُّوا أُمرَاءَكُم وَلَا تَغُشُّوهم وَلَا تُبْغِضُوهُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاصْبِرُوا فَإِنَّ الأَمْرَ قَرِيبٌ**»(١).

الوصية الثانية: تحقيقُ الأخوة الإيمانية والرابطة الدينية والحذر من العصبيات المذمومة والتعصبات المحمومة، والحميات الجاهلية، والعصبيات العرقية التي تمزق ولا تجمع، وتشتّت ولا تؤلّف، وتفسد ولا تصلح، ومن آثارها الوخيمة نشوءُ القتال تحت رايات عُمية يغضب فيها لعصبة أو يدعى إلى عصبة أو ينتصر لعصبة ومن كان على هذا النهج فقتل فقتلته جاهلية.

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠١٥) وجود إسناده العلامة الألباني رحمه الله.

الوصية الثالث: حفظ وحدة المسلمين، ومراعاة حرماتهم، والوفاء بعهودهم وعقودهم، وعدم إخفار ذممهم، والبعد عن الإضرار بهم وإيذائهم، ومن انحرف عن هذا السبيل المبارك وخرج على المسلمين يضرب برهم وفاجرهم، ولا يتحاشى من مؤمنهم ولا يفي لذي عهد عهده فالنبي ﷺ منه براء، ولهذا قال في الحديث: «**فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ**».

فما أعظم هذه الوصايا، وما أشدَّ حاجة المسلمين إلى تطبيقها لتتحقق لهم الخيرية، وليأمنوا من الأخطار المحدقة والشرور المهلكة والعواقب الوخيمة.

ومن يتأمل ما سبق من وصايا وتوجيهات يدرك سوء حال وقبيح فعال من اتخذوا إخافة المؤمنين، وإرعاب الآمنين، وقتل المسلمين، والمستأمنين، وتخريب المساكن، وتفجير الدور، سبيلاً وطريقاً ويزعمون أنهم يصلحون ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

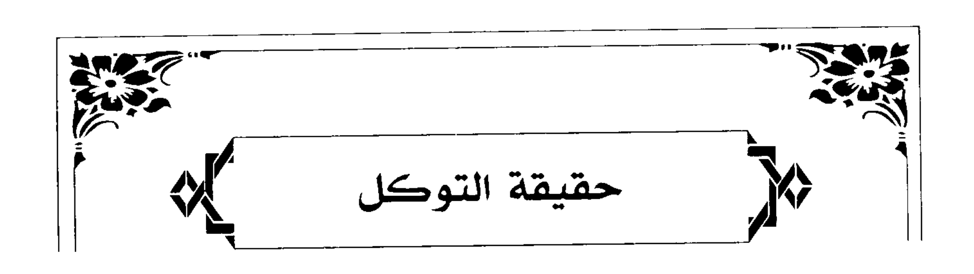
أفمن الإصلاح قتلُ النفوس المعصومة من الولدان والنساء والشيب.

أو من الإصلاح الخروج على ولي الأمر المسلم ونزع اليد من الطاعة وتسفيه العلماء وتجهيل الفقهاء؟

أو من الإصلاح إتلاف الأموال المحترمة وتدمير الدور والمساكن؟

أو من الإصلاح نقض العهود وإخفار الذمم وقتل المعاهدين والمستأمنين؟

هيهات وحاشا أن يكون هذا سبيل المصلحين، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونسأله سبحانه أن يعز دينه وأن يعلي كلمته، وأن يجمع كلمة المسلمين على الحق والهدى، وأن يجنب بلادهم كل سوء ومكروه إنه سميع مجيب.



حقيقة التوكل

إنَّ التوكل على الله وحده، وتفويضَ الأمور كلِّها إليه، والاعتمادَ عليه في جلب النعماء ودفع الضر والبلاء مقامٌ عظيمٌ من مقامات الدين الجليلة، وفريضة عظيمة يجب إخلاصها لله وحده، وهو من أجمع أنواع العبادة وأهمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، والطاعات الكثيرة، فإنَّه إذا اعتمد القلب على الله في جميع الأمور الدينية والدنيوية دون من سواه، صح إخلاصه وقويت معاملته مع الله وزاد يقينه وثقته به تبارك وتعالى.

وقد أمر الله سبحانه بالتوكل عليه في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، وجعل التوكل عليه شرطاً في الإيمان، فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]؛ فجعل دليل صحة الإيمان والإسلام التوكل على الله، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، فإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد، فالتوكل أصل لجميع مقامات الدِّين، ومنزلتُهُ منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل.

وحقيقة التوكل هو عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه وتفويضاً إليه ورضاً بما يقضيه له؛ لعلمه بكفايته

سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوّض إليه أموره مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها. هذه هي حقيقة التوكل: اعتماد على الله وحده لا شريك له، مع فعل الأسباب المأمور بها والقيام بها، دون تعدٍّ إلى فعل سبب غير مأمور، أو سلوك طريق غير مشروع.

والناس منقسمون في هذا الأمر الجليل إلى طرفين ووسط: فأحد الطرفين عطل الأسباب محافظة على التوكل، والطرف الثاني عطل التوكل محافظة على السبب، والوسط علم أنَّ حقيقة التوكل لا تتم إلا بالقيام بالسبب فتوكل على الله في نفس السبب.

وقد جُمع بين هذين الأصلين في نصوص كثيرة، منها قوله ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله**»[1]. ففي قوله: «**احرص على ما ينفعك**» أمر بكل سبب ديني ودنيوي بل أمر بالجد والاجتهاد فيه والحرص عليه نية وهمة وفعلاً وتدبيراً. وفي قوله: «**واستعن بالله**» إيمان بالقضاء والقدر وأمر بالتوكل على الله الذي الاعتماد التام على حوله وقوته في جلب المصالح ودفع المضار مع الثقة التامة به في نجاح ذلك، فالمتبع للرسول ﷺ يلزمه أن يتوكل على الله في أمر دينه ودنياه، وأن يقوم بكل سبب نافع بحسب قدرته وعلمه ومعرفته.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: قال رجل: يا رسول الله! أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**»[2]. فأرشده ﷺ إلى الجمع بين الأمرين: فعل السبب، والاعتماد على الله.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو**

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٤٤).

أنَّكم كُنْتُم تَوَكَّلون على الله حق توكله، لرزقتم كما يُرزَقُ الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[1]. فذكر الأمرين معاً، فإنَّ غدو الطير وهو ذهابها في الصباح الباكر هو سعي في طلب الرزق وتحصيله.

وروى ابن أبي الدنيا عن معاوية بن قرة قال: لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ناساً من أهل اليمن فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. قال: بل أنتم المتواكلون، إنَّما المتوكل الذي يلقي حبَّه في الأرض ويتوكل على الله عز وجل.

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[2].

وبهذا يعلم أنَّ التوكل لا بد فيه من الجمع بين الأمرين: فعل السبب والاعتماد على المسبب وهو الله، أما من عطل السبب وزعم أنَّه متوكل فهو في الحقيقة متواكل مغرور مخدوع، وفعله هذا ما هو إلا عجز وتفريط وتضييع، فلو قال قائل مثلاً: إن قدر لي أدركت العلم اجتهدت أو لم أجتهد، أو قال: إن قدر لي أولاد حصلوا تزوجت أو لم أتزوج، وهكذا من رجا حصول ثمر أو زرع بغير حرث وسقي وعملٍ متكلاً على القدر، وهكذا أيضاً من يترك أهله وولده بلا نفقة ولا غذاء ولا سعي في ذلك متكلاً على القدر، فكل هذا تضييع وتفريط وإهمال وتواكل.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٩١١).

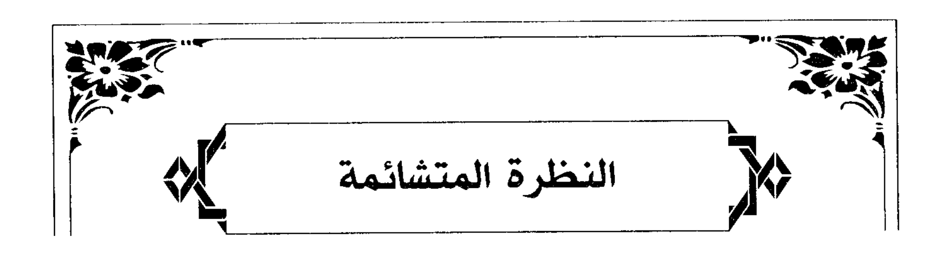
(٢) رواه البخاري (١٥٢٣).

أما من يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه فهذا توكله عجز وخذلان، ونهايته ضياع وحرمان؛ ولذا قال بعض العلماء: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع».

إنَّ التوكل مصاحب للمؤمن الصادق في أموره كلها الدينية والدنيوية فهو مصاحب له في صلاته وصيامه وحجه وبره وغير ذلك من أمور دينه، ومصاحب له في جلبه للرزق وطلبه للمباح وغير ذلك من أمور دنياه، فالتوكل على الله نوعان: توكلٌ عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه، وتوكلٌ عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والصلاة والصيام والحج والجهاد والدعوة وغير ذلك.

فهذه صفة المؤمنين الصادقين، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].





النظرة المتشائمة

قد جاء الإسلام يحمل بتوجيهاته المباركة ومقاصده العظيمة وغاياته الحميدة الرفعةَ والعزةَ وحسنَ العاقبة والربحَ في الدنيا والآخرة، بل لا سبيل إلى نيل شيء من ذلك إلا بالإسلام، فالإسلام هو دين الرفعة والعزة والكمال.

والمسلم الذي حباه الله ﷻ بهذا الدين وشرح صدره له، يحمل في قلبه من هذه العزة بحسب ما يحمله من هذا الدين. فكلما زاد استمساكُهُ به ومحافظته عليه ورعايته لأحكامه وتوجيهاته، زاد حظه من هذه العزة.

ومما حاربه الإسلام وحذر منه أشد التحذير، النظرة المتشائمة تجاه الأمور والوقائع والأحداث. يقول ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل**» قالوا: وما الفأل؟ قال: «**الكلمة الطيبة**»[1].

والطيرة هي التشاؤم بالطيور أو الأسماء أو الألفاظ أو البقاع أو غيرها فجاء الشارع بالتحذير منها وذمها وذم المتطيرين، وكان يحب الفأل ويكره الطيرة، لأن الفأل لا يخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق للقلب بغير الله، بل فيه من المصلحة إدخال النشاط والسرور على القلب، وتقوية العزائم والهمم، وشحذ النفوس للسعي في تحقيق المقاصد النافعة والغايات الحميدة، بخلاف النظرة

(١) رواه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

المتشائمة فإنها نظرة متعثرة تخلخل التفكير وتعوق القلب وتقطع النفس وتثبط الهمم وتجلب لصاحبها التواني والكسل، فلا غرو أن يأتي الدين الحنيف بذم هذه النظرة القاتمة ومحاربة هذا التفكير المظلم.

وتبلغ النظرة المتشائمة أوج فسادها وغاية انحطاطها ونهاية هلكتها عندما تكون متجهة لهذا الدين العظيم نفسه سواء للدين كله أو لبعض أحكامه العظيمة وآدابه الكريمة، ومن يرصد التاريخ ويتتبع أحوال الأمم يرى أن هذه النظرة المتشائمة ملتصقة بأعداء الرسل، ويعظم حجمها فيهم بعظم عداوتهم للمرسلين ولما جاؤوا به، وملتصقة كذلك بحق من في دينه رقة وفي إيمانه ضعف ووهن. ومن الأمثلة على هذا ما يلي:

١ ـ ما حكاه الله عن قوم موسى مما كانوا عليه من تطير به وبمن معه، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣١] أي أنهم حال الخصب والرخاء والرزق يقولون: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي نحن مستحقون لها فلم يشكروا الله عليها، وإذا أصابتهم السيئة وهي القحط والجدب ونقص الرزق تطيروا بموسى ومن معه، أي يقولون: إنما جاءنا هذا بسبب مجيء موسى والدعوة التي يحملها وأتباعه الذين استمسكوا بدعوته، فرد الله عليهم نظرتهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أن ما يقع عليهم فإنما هو بقضاء الله وقدره وليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك.

٢ ـ ولما دعا صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحذرهم من فعل

السيئات ورغبهم في الاستغفار لينالوا بذلك رحمة الله، نظر إليه فريق منهم تلك النظرة المتشائمة. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٥ ـ ٤٧]، فزعموا ـ قبَّحهم الله ـ أنهم لم يروا على وجه صالح عليه السلام خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين صاروا سبباً لمنع مطالبهم الدنيوية ومقاصدهم وغاياتهم في هذه الحياة، فرد عليهم نبي الله صالح هذه النظرة المتشائمة بقوله: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي أن ما يصيبكم من مصائب وما يحل بكم من نكبات، فهو بقضاء الله وقدره وسببه ذنوبكم وإعراضكم عن دينه الحنيف الذي لا يجلب لأهله إلا الخير والمسرة في الدنيا والآخرة.

٣ ـ وهكذا إجابة قوم ياسين رسلهم بهذه النظرة المتشائمة عندما دعوهم إلى هذا الدين العظيم، يقول الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٣ ـ ١٩]. فقابلوا نصح هؤلاء المرسلين وحسن دلالتهم إلى الخير بهذه النظرة المتشائمة فقالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: لم نر في قدومكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر، وهذا من أعظم القلب للحقائق، إذ كيف يجعل من قَدِمَ عليهم بأجلِّ النعم وأعظم الخير على هذا الوصف، لم يزد مجيئه

حالهم إلا شراً، بل لم يكتفوا بذلك فأخذوا يتوعدون رسلهم بالرجم وإيقاع أشد العقوبات بهم فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فرد عليهم رسلهم عليهم السلام نظرتهم المتشائمة هذه بقولهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: أن ما معكم من الشرك والشر هو المقتضي لوقوع تلك المكاره والنقم، وزوال المحبوبات والنعم. وقولهم: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: هل بسبب تذكيرنا لكم بما فيه صلاحكم وحظكم وسعادتكم، قلتم لنا ما قلتم؟ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي متعدون ومتجاوزون للحد.

٤ ـ وهكذا ما أخبر الله عن حال من قابلوا النبي ﷺ ودعوته بهذه النظرة المتشائمة، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٨ ـ ٧٩]؛ أي: أنَّ هؤلاء المعرضين عما جاء به حالهم أنهم إذا جاءتهم حسنة، أي: خصب أو كثرة مال أو توفر أولاد وصحة قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ بينما إذا أصابتهم سيئة أي جدب أو فقر أو مرض أو موت أولاد أو فقد أحباب قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ أي بسبب ما جئتنا به يا محمد، فتطير هؤلاء برسول الله ﷺ ونظروا إليه وإلى ما جاء به تلك النظرة المتشائمة كما هو الشأن في أمثالهم من أهل الشرك والضلال، فلما تشابهت قلوب هؤلاء بالكفر والصدود والإعراض، تشابهت أقوالهم وأفعالهم وتوافقت عقولهم وآراؤهم. وهكذا يلتقي في التشابه مع هؤلاء، كلٌّ من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه. ويلحق من كان كذلك من الذم ما لحق أولئك بحسب ما قام فيه من نظرة متشائمة تجاه

المرسلين، أو تجاه ما دعوا إليه من الإيمان والهدى والخير العظيم.

ثم إن هذه النظرة المتشائمة تدل على خفة في العقل ورداءة في التفكير وضحالة في الفهم، ولهذا ختم الله ﷻ هذا السياق الكريم المبارك بقوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: ما لهؤلاء الذين حصلت منهم تلك النظرة المتشائمة والمقالة الآثمة ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يفهمون حديثاً بالكلية ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهماً ضعيفاً. وفي هذا ذم لهم وتوبيخ وتقريع لعدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله ﷺ، وفي ضمن هذا مدح للمؤمنين الذين يفقهون عن الله وعن رسوله ﷺ، ويتلقون جميع ما جاء في الكتاب والسنة بالرضى والقبول، دون تخوف أو انتقاد، ومَن فَقِه دينَ الله حقاً علم أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله قدره، وأن الرسل عليهم السلام لا يأتون بشيء يترتب عليه ضرر أو شر على الناس ولا يمكن أن يكون فيما جاؤوا به شيء من ذلك، وحاشا أن يكون لأنهم قد بعثوا بصلاح الدين والدنيا والآخرة. وفي الحديث: «**إنه لم يكُنْ نبيٌّ قبلي إلا كان حقّاً عليه أن يدُلَّ أمّتَهُ على خيرِ ما يعلَمُهُ لَهُمْ، ويُنْذِرَهُمْ شَرَّ ما يَعْلَمُهُ لَهُمْ**»[1]. فهم عليهم السلام هداة الخلق ودعاة الحق ومنارات الخير، بل لا خير إلا من طريقهم ولا شر إلا بمفارقة ما جاؤوا به.

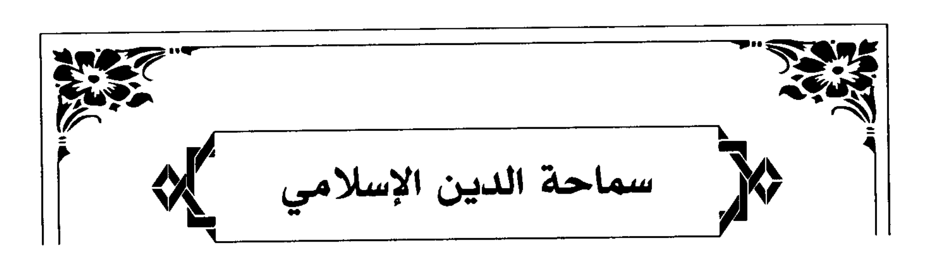
هذا وإن من عجيب أمر المتفلتين على الشريعة المنحلين عن الدين في كل زمان ومكان، أنهم لا يمتلكون شيئاً يقاومون به ما لا يروق لهم مما جاءت به الأنبياء إلا مدافعته بهذه النظرة المتشائمة، فتأتي عبارات هؤلاء المنبثقة من هذه النظرة شاهدة على إفلاس هؤلاء

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

ووهاء حجتهم كمن يقول عن شيء من أوامر الدين: إنها سبب للرجعية أو التخلف، أو أنها تعيق الإنسان في هذه الحياة، أو أنها تجلب المشاكل للناس وتكون سبباً لحلول الشرور بهم إلى غير ذلك من المقالات الآثمة، والكلمات الجائرة التي تنبئ عن عدم دراية هؤلاء بشأن هذا الدين وعظم آثاره الحميدة وعواقبه المباركة على أهله في الدنيا والآخرة، ومن عوفي فليحمد الله، وليسأل ربه الثبات على هذا الدين القويم والصراط المستقيم.





سماحة الدين الإسلامي

اعلموا أنَّ الشريعة الإسلامية السمحة مبناها على اليسر والسهولة ورفع الحرج، يقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

فالدين الإسلامي يُسْرٌ في عقائده وأحكامه، وفي أوامره ونواهيه، فعقائده أصحُّ العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها وأطيبها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها وأقومها.

ومَن تأمَّل حسن هذا الدين ونقاءه، وصفاءَه، وبهاءَه، ويسرَه وسهولتَه، ازداد تمسّكاً به وتعظيماً له وقياماً بعقائده وأحكامه.

ثبت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الدِّين يُسرٌ**»(١).

ومعنى قوله: «**إنَّ الدِّين يسرٌ**» أي ميسَّرٌ مسهَّلٌ في عقائده وأخلاقه وأعماله، وفي أفعاله وتروكه؛ فإنَّ عقائدَه التي ترجع إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه هي العقائد الصحيحة التي تطمئن لها القلوب، وتوصل معتقِدَها والمتمسِّكَ بها إلى أجلِّ غاية وأفضل مطلوب.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٩).

وأخلاقه وأعماله أكمل الأخلاق وأصلح الأعمال، بها صلاح الدين والدنيا والآخرة، وبفواتها يفوت الصلاح كلُّه، وهي كلُّها ميسَّرةٌ مسهَّلةٌ، كلُّ مكلَّف يرى نفسه قادراً عليها لا تشقُّ عليه ولا تكلفه، عقائده صحيحةٌ بسيطةٌ، تقبلها العقول السليمة والفطر المستقيمة، وفرائضه أسهل شيء يكون في الفرائض وأيسره.

فأمَّا الصلوات الخمس فإنَّها تتكرَّر كلَّ يوم خمس مرَّات في أوقات مناسبة لها، وتمَّم اللطيف الخبير سهولَتَها بإيجابها جماعة والاجتماع لها، فإنَّ الاجتماع في هذه العبادة من المنشطات والمسهلات لها، ورتَّب عليها من خير الدِّين وصلاح الإيمان وثواب الله العاجل والآجل ما يوجب للمؤمن أن يستحليها ويحمد الله على فرضه لها على العباد؛ إذ لا غنى لهم عنها.

وأما الزكاة؛ فإنَّها لا تجب على فقير ليس عنده نصاب زكوي، وإنَّما تجب على الأغنياء تتميماً لدينهم وإسلامهم، وتنمية لأموالهم وأخلاقهم، ودفعاً للآفات عنهم وعن أموالهم، وتطهيراً لهم من السّيئات، ومواساة لمحاويجهم وفقرائهم، وقياماً لمصالحهم الكلية، وهي مع ذلك جزء يسير جدّاً بالنسبة إلى ما أعطاهم الله من المال والرزق.

وأما الصيام، فإنَّ المفروض شهر واحد من كلِّ عام، يجتمع فيه المسلمون كلُّهم، فيتركون فيه شهواتهم الأصلية من طعام وشراب ونكاح في النهار، ويعوِّضهم الله عن ذلك من فضله وإحسانه تتميم دينهم وإيمانهم، وزيادة كمالهم وأجره العظيم وبرِّه العميم، وغير ذلك ممّا رتّبه على الصيام من الخير الكثير، ويكون سبباً لحصول التقوى التي ترجع إلى فعل الخيرات كلِّها وترك المنكرات.

وأما الحج، فإنَّ الله لم يفرضه إلَّا على المستطيع وفي العمر

مرة واحدة، وفيه من المنافع الكثيرة الدينية والدنيوية ما لا يمكن تعداده، كما قال الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، أي دينية ودنيوية.

وهكذا بقية شرائع الإسلام كلّها سهلة ميسّرةٌ، وهي راجعةٌ إلى أداء حقِّ الله وحقِّ عباده، وليس فيها أي مشقّة أو حرج على المكلَّفين، يقول الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

فاتَّقوا الله واستمسكوا بآداب هذا الدين الميسّر، فهو الدين الذي يوجِّه العباد إلى كلِّ أمر نافع لهم في دينهم ودنياهم، ويحذِّرهم عن كلِّ ضارٍّ لهم في دينهم ومعاشهم.

وهو الدين العظيم الذي شهد الربُّ العظيم بصحته وكماله، وشهد بذلك الكُمَّل من الخلق: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨ ـ ١٩].

وهو الدِّين الذي من اتَّصف به جمع اللهُ له جمال الظاهر والباطن، وكمالَ الأخلاق والأعمال، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، فلا أحد أحسن من هذا الذي انصبغ قلبه بالإخلاص والتوحيد، واستقامت أخلاقه وأعماله على الهداية والتسديد.

وهو الدِّين الذي أصلح الله به العقائد والأخلاق، وأصلح به الحياة الدنيا والآخرة، وألَّف به القلوب المشتَّتة والأهواء المتفرِّقة، فخلصها من براثين الباطل، ودلَّها إلى الحق، وهداها إلى سواء الصراط.

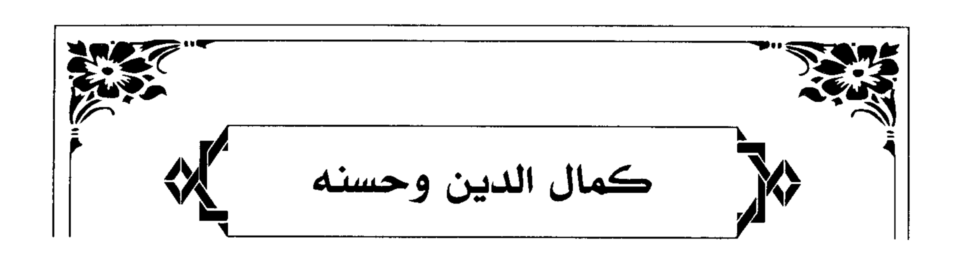
وهو الدين القويم المحكم غاية الإحكام في أخباره كلِّها، وفي أحكامه جميعها، فما أخبر إلَّا بالصدق والحق، ولا حكم إلَّا بالحق

والعدل، فلم يأت علمٌ صحيحٌ ينقض شيئاً من أخباره، ولا حكمٌ أحسن من أحكامه.

وهو الدِّين العظيم الذي يهدي إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم: الصدقُ شعاره، والعدل مداره، والحق قِوامه، والرحمة روحه وغايته، والخير قرينه، والصلاح والإصلاح جماله وأعماله، والهدى والرشد زاده، ولا سبيل إلى الفوز بالجنة والنجاة من النار إلَّا بسلوك طريقه واتِّباع إرشاداته.

إنَّ مَن عرف شيئاً من أوصاف هذا الدِّين عرف عظيمَ منَّة الله به على الخلق، وأنَّ من نبذه وقع في الباطل والضلال والخيبة والخسران؛ لأنَّ الأديان التي تخالفه ما بين خرافات ووثنيات، وما بين إلحاد وماديات تجعل قلوبَ أهلها وأعمالهم كالبهائم، بل هم أضلُّ سبيلاً؛ لأنَّ الدِّينَ الإسلامي إذا ترحَّل من القلوب وفارقها ترحَّلت الأخلاق الجميلة والأعمال الجليلة، وحلَّ محلَّها الأخلاق الرذيلة وسيئ الأعمال.

إنَّ الواجبَ علينا نحن المسلمين أن نحمدَ اللهَ على هذه النعمة العظمى والمِنَّة الجسيمة، وأن نستشعر فضلَ الله علينا بها، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]، وأن نقوم بحق هذه النعمة كما ينبغي، وذلك بالتزوّد من علوم هذا الدِّين والتعرُّف على عقائده وأحكامه وآدابه، مع التمسُّك الصادق والاستسلام الكامل، وإقامة الوجه للدين القيِّم الحنيف بلا غلوٍّ ولا شطط، وبلا إفراط أو تفريط. وأن نطلبَ العونَ في تحقيق ذلك وتكميله من الله وحده، فهو المستعان، اللهمَّ حبِّبْ إلينا الإيمان وزيِّنْهُ في قلوبِنَا، وكرِّهْ إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، واجعلنا اللَّهمَّ من الراشدين نحن ووالدينا وجميع المسلمين، واغفر لنا إنَّك أنت الغفور الرحيم.



كمال الدين وحسنه

إنَّ نعم الله على عباده عديدة، وآلاؤه وأفضاله كثيرة، وإن أجلَّ نعمه سبحانه على عباده هدايتهم لهذا الدين القويم والملة الحنيفية ملةِ الإسلام، التي لا تنال العبارةُ كمالها، ولا يدرك الوصفُ حسنها، فما أنعم الله على عباده بنعمةٍ أجلَّ من أن هداهم له، وجعلهم من أهله، وممن ارتضاه لهم وارتضاهم له، ولهذا امتَنَّ عليهم بهدايتهم إليه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ وقال تعالى معرفاً لعباده ومذكراً لهم عظيم نعمته عليهم بهذا الدين، مستدعياً منهم شكرهم على أن جعلهم من أهله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة ٣].

لقد جاءت شرائعُ هذا الدين وأعمالُه متممةً مكملة وسهلةً ميسرة، لا يلحق العبادَ في الإتيان بها عنتٌ أو مشقةٌ، ومن يتأمل على سبيل المثال الأمورَ الخمسة التي بني عليها الإسلام، المذكورة في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والحجِّ، وصومِ رمضانَ**»[1] يجد أنها أعمالٌ ميسرة

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

وطاعاتٌ مكملة، مشتملةٌ على صلاح العباد وزكاتهم وكمالهم ورفعتهم. فالشهادتان عنوانٌ لهذا الدين ومفتاحٌ للإسلام، وهما أصل الدين وأساسه، ورأس أمره وساق شجرته، وبقية الأركان والفرائض متفرعةٌ عنهما متشعبةٌ منهما مكملاتٌ لهما.

وأما الصلاة فقد وضعت على أكمل الوجوه وأحسنها متضمنة لتعظيم الله بأنواع الجوارح، من نطق اللسان وعمل اليدين والرجلين، والرأس وحواسه وسائر أجزاء البدن، كلٌ منها يأخذ حظَّه ونصيبه في هذه العبادة، وهي مشتملةٌ على الثناء والحمد والتمجيد والتسبيح والتكبير وشهادة الحق والقيام بين يدي الرب، مقام العبد الذليل الخاضع المدبر المربوب، ومشتملةٌ على التذلل لله في هذا المقام والتضرعِ والتقرب إليه بتلاوة كلامه، ثم انحناءُ الظهر ذلاً له وخشوعاً واستكانَة، ثم استواؤه قائماً ليستعد لخضوع أكمل له من الخضوع الأول وهو السجود من قيام، فيضعُ أشرف شيء فيه وهو وجهُهُ على الأرض خشوعاً لربه واستكانة وخضوعاً لعظمته، وذلاً لعزته وقد انكسر له قلبه وذل له جسمُه وخشعت جوارحه، ثم يستوي قاعداً يتضرع له ويتذلل بين يديه ويسأله من فضله، ثم يعود إلى حاله من الذل والخشوع والاستكانة، فلا يزال هذا دأبه حتى يقضي صلاته، فيجلس عند إرادة الانصراف منها مثنياً على ربه مسلِّماً على نبيِّه وعلى عباده، ثم يصلي على رسوله ﷺ، ثم يسأل ربه من خيره وبره وفضله، ثم يسلم. فأي عبودية أشرف من هذه العبودية، وأي كمال وراء هذا الكمال؟!

وأما الزكاة فإنها عبادة مالية عظيمة النفع كبيرة الأثر لما تضمنته من مواساةِ ذوي الحاجة والمسكنة من عباد الله الذين يعجَزُون عن إقامة نفوسهم ويُخاف عليهم التلف إذا خلاهم الأغنياءُ وأنفسَهم، مع

ما فيها من الرحمة والإحسان والبر والطُّهرة، والاتصافِ بالكرم والإيثار والجود والفضل والخروج من الشح والبخل والدناءة، ونحو ذلك مما يدل على تمام هذه العبادة وكمالها.

وأما الصوم فإنه عبادة عظيمة تكفُّ النفسَ عن شهواتها وتخرجها عن شَبَهِ البهائم إلى شَبَه الملائكة المقربين، فإن النفس إذا خُليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البهائم، فإذا كُفَّت شهواتُها لله ضُيقت مجاري الشيطان، وصارت قريبة من الله بترك عادتها وشهواتها محبَّةً له وإيثاراً لمرضاته وتقرباً إليه، فيدعُ الصائم أحبَّ الأشياء وأعظمها لصوقاً بنفسه من الطعام والشراب والجماع من أجل ربه وطمعاً في نيل ثوابه ومرضاته، فأيُّ حُسْنٍ يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر الشهوة، وتقمعُ النفس، وتحيي القلب وترغب فيما عند الله، وتزهد في الركض وراء الشهوات، وتعين العبد على القيام بتقوى الله؟! وما استعان أحد على القيام بتقوى الله وحفظ حدوده واجتناب محارمه بمثل الصوم، وكل ذلك دالٌّ على كمال هذه العبادة وجمالها.

وأما الحج فشأنه أجلُّ من أن تحيط به العبارة، وهو خاصة هذا الدين الحنيف، حيث جعل الله بيته الحرام قياماً للناس، فهو عمود العالم الذي عليه بناؤه، فلو ترك الناس كلُّهم الحجَّ سنة لخرَّت السماء على الأرض، كما قال ذلك ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما.

فالبيت الحرام قيامُ العالم فلا يزال قياماً ما دام هذا البيت محجوجاً، فالحج هو خاصة الملة الحنيفية، ومعونةُ الصلاة، وسرُّ قول العبد: لا إله إلا الله، فإنه مؤسس على التوحيد المحض والمحبة الخالصة والانقياد الكامل لله عز وجل، ولهذا كان شعار الحاج لبيكَ اللهم لبيك. ومن يتأمل في هذه العبادة العظيمة من الإحرام

واجتناب العوائد والمألوفات وكشف الرأس ونزع الثياب المعتادة، والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة ورمي الجمار وسائر شعائر الحج، يجدها خير شاهد على حسن هذه العبادة وتمامها وكمالها. ومن نعمة الله على عبده المؤمن إذا أداها على التمام والكمال، أن يخرج من ذنوبه وخطاياه كيوم ولدته أمه، فالحج يجُبُّ ما قبله.

عن أبي هريرة ﵁ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**من حجَّ لله فلم يرفُثْ ولم يفسُقْ، رجَعَ كيومِ ولدَتْهُ أمُّهُ**»[1].

فمن يفرط في هذه الأعمال الزاكية، والطاعات العظيمة التي هي عنوان هذا الدين ودليل كماله، فقد حكم على نفسه بالحرمان وقضى عليها بالخسران، وحرمها لذةَ وزينةَ هذه الحياة، إذ لذة الحياة الدنيا وزينتها الحقيقيَّة إنما تكون بذلك.

عن العباسِ بن عبد المطَّلب ﵁: أنه سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**ذاقَ طعمَ الإيمانِ من رضيَ باللهِ ربّاً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمَّدٍ ﷺ رسولاً**»[2].

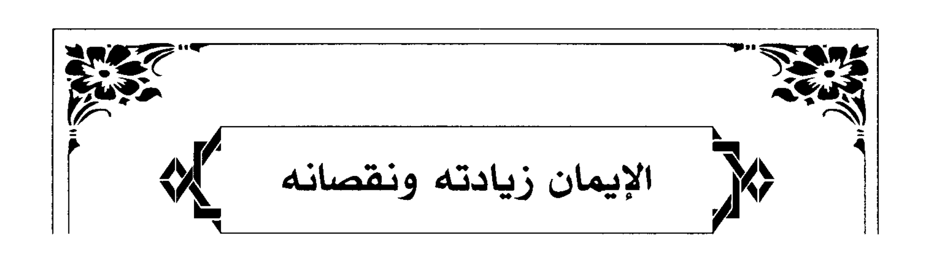
اللهم اجعلنا كذلك، ومنَّ علينا بالثبات على ذلك. اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مؤمنين، غير ضالين ولا مضلين.



---

(١) رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

(٢) رواه مسلم (٣٤).



الإيمان زيادته ونقصانه

إن أهم ما يجب على العبد العنايةُ به في هذه الحياة الإيمانُ، فهو أفضلُ ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، بل إن كلَّ جهد في الدنيا والآخرة متوقف على الإيمان الصحيح، فهو أعظمُ المطالب وأجلُّ المقاصد وأنبل الأهداف، فبالإيمان يحيى العبد الحياة الطيبة في الدارين وينجو من المكاره والشرور والشدائد، ويدرك جميلَ العطايا وواسعَ المواهب. وبالإيمان ينال ثواب الآخرة فيدخل جنةً عرضها كعرض السماء والأرض، فيها من النعيم المقيم والفضل العظيم ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وبالإيمان ينجو من نارٍ عذابُها شديد وقعرها بعيد وحرها شديد، وبالإيمان يفوز العبد برضى ربه سبحانه فلا يسخط عليه أبداً، ويتلذذُ يوم القيامة بالنظر إلى وجهه الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة. وبالإيمان يطمئن القلب وتسكن النفس ويسر الفؤاد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]. وكم للإيمان من الفوائد العظيمة والآثار الكريمة والثمار اليانعة والخير المستمر في الدنيا والآخرة، مما لا يحصيه ولا يحيط به إلا الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٧].

إن الإيمان شجرةٌ مباركةٌ عظيمةُ النفع، غزيرة الفائدة، كثيرة الثمر؛ لها مكان تغرس فيه، ولها سقي خاص، ولها أصل وفرع

وثمار. أما مكانها فهو قلب المؤمن، فيه توضع بذورها وأصولها ومنه تنشأ أغصانها وفروعها، وأما سقيها فهو الوحي المبين: كتابُ الله وسنةُ رسوله ﷺ؛ فبه تُسقى هذه الشجرة، ولا حياةَ لها ولا نماءَ إلا به، وأما أصلها فهو أصول الإيمان الستة: الإيمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأعلاها الإيمان بالله، فهو أصل أصول هذه الشجرة المباركة. وأما فروعها فهي الأعمال الصالحة والطاعات المتنوعة والقربات العديدة التي يقوم بها المؤمن، من صلاةٍ وزكاة وحج وصيام وبر وإحسان وغير ذلك؛ وأما ثمراتها فكل خير وسعادة ينالها المؤمن في الدنيا والآخرة، فهو ثمرة من ثمار الإيمان ونتيجة من نتائجه ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

والناس يتفاوتون في الإيمان تفاوتاً عظيماً بحسب تفاوتهم في هذه الأوصاف قوةً وضعفاً زيادةً ونقصاناً، فجدير بالعبد المسلم الناصح لنفسه أن يجتهدَ في معرفة هذه الأوصاف ويتأملَها ثم يطبِّقَها في حياته ليزداد إيمانه ويقوى يقينه ويعظم حظه من الخير، كما أن عليه أن يحفظ نفسه من الوقوع في الأمور التي تنقص الإيمان وتضعف الدين، ليسلم من عواقبها الوخيمة ومغبتها الأليمة.

وللإيمان أسباب كثيرة تزيده وتقويه أهمها تعلمُ العلم النافع، وقراءةُ القرآن الكريم وتدبره، ومعرفةُ أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وتأملُ محاسنِ ديننا الحنيف، ودراسةُ سيرة نبينا الكريم ﷺ، وسيرِ أصحابه، والتأمل والنظر في هذا الكون الفسيح وما فيه من دلالات باهرة وحجج ظاهرة وآياتٍ بينة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، كما أن الإيمان يزيد بالجد والاجتهاد في طاعة الله، والمحافظة على أوامره وحفظ

الأوقات في طاعته وما يقربُ إليه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وللإيمان أسباب كثيرة تنقصه وتضعفه يجب على العبد أن يحترز منها، وأهمها الجهلُ بدين الله، والغفلةُ والإعراض، وفعل المعاصي وارتكابُ الذنوب، وطاعةُ النفس الأمارة بالسوء، ومخالطةُ أهلِ الفسق والفجور، واتباع الهوى والشيطان، والاغترارُ بالدنيا والافتتانُ بها بحيث تكون هي غايةَ مُنَى الإنسان وأكبرَ مقصوده.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**»(١).

فوصف ﷺ الإيمان بأنه يخلق كما يخلق الثوب، أي يبلى ويضعف ويدخله النقص، من جراء ما قد يقع فيه المرءُ من معاصٍ وآثام، وما يلقاه في هذه الحياة من ملهِّيات متنوعة وفتن عظام تُذهِبُ جدةَ الإيمانِ وحيويته وقوته، وتضعف جماله وحسنه وبهاءه، ولهذا أرشد عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث إلى تعاهد الإيمان والعملِ على تقويته وسؤالِ الله زيادتَهُ ونباتَهُ، والله جل وعلا يقول: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]. فمن الخير لعبد أن ينصح لنفسه في إيمانه الذي هو أغلى شيء لديه، وأثمنُ شيء عنده، وخيرُ زاد لقاء الله.

ولما تحقق سلفُ الأمة وصدرها وخيارها بعظم شأن الإيمان وشدة الحاجة إليه، وأن الحاجة إليه أعظمُ من الحاجة إلى الطعام

---

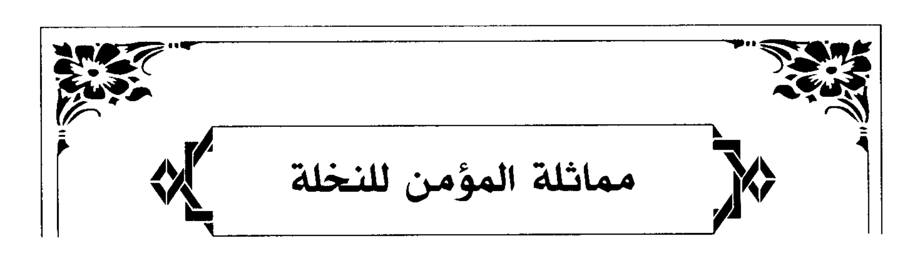
(١) رواه الحاكم (١/ ٤)، وحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٥٨٥).

والشراب والهواء، كانت عنايتهم به عظيمةً ومقدمة على كل أمر، فكانوا يتعاهدون إيمانهم ويتفقدون أعمالهم ويتواصون بينهم.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه: «هلموا نزداد إيماناً»، وكان عبد الله مسعود رضي الله عنه يقول: «اجلسوا بنا نزدد إيماناً» وكان يقول في دعائه: «اللهم زدني إيماناً ويقيناً وفقهاً». وكان عبدُ الله بنُ رواحة رضي الله عنه يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول: «تعالَوا نؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله ونزداد إيماناً بطاعته، لعله يذكرُنا بمغفرته». وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «من فقه العبد أن يعلم أمزدادٌ هو أو منتقص [أي من الإيمان]، وإن من فقه العبد أن يعلم نزغاتِ الشيطان أنى تأتيه»، وكان عميرُ بنُ حبيبٍ الخطميُّ رضي الله عنه يقول: «الإيمان يزيد وينقص، فقيل: وما زيادتُه ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه» والنقول في هذا المعنى كثيرة جداً.

ولهذا فإن العبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في حياته بتحقيق أمرين عظيمين: أحدِهما: تقويةُ الإيمان وفروعه والتحققُ بها علماً وعملاً، والثاني: السعيُ في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح وتدارك الأمر قبل فواته. فنسأل الله الكريم أن يمن علينا بتحقيق ذلك وتكميله على الوجه الذي يرضيه عنا، وأن يرزقنا إيماناً صادقاً ويقيناً كاملاً وتوبة نصوحاً، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات إنه هو الغفور الرحيم.





مماثلة المؤمن للنخلة

إن الشجرة الكريمة المباركة ـ أعني النخلة ـ التي هي أفضل الشجر وأطيبه وأحسنه، قد جعلها الله في كتابه الكريم مثلاً لعبده المؤمن. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثلُ المسلم، فحدثوني ما هي؟**» فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييتُ. ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «**هي النخلة**»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مثل المؤمن مثل النخلة، ما أخذت منها من شيء نفعك**»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أُتي رسول الله ﷺ بقَناع عليه رُطَبٌ، فقال: مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥] قال: «هي

---

(١) رواه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

(٢) رواه الطبراني (١٣٥١٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٨٤٨).

النخلة». ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٦] قال: «هي الحنظل». قال: فأخبرتُ بذلك أبا العالية، فقال: صدق وأحسن[1].

والنخلة إنما حازت هذه الفضيلة العظيمة بأن جعلت مثلاً لعبد الله المؤمن، لأنها أفضلُ الشجر وأحسنُه، وأكثرُه عائدةً، ويكفيها فضيلة أنها خصت من بين سائر الشجر بأن جعلت مثلاً للمؤمن؛ مما يدل على كريم فضلها ورفيع قدرها، وتنوع فضائلها كثباتِ أصلها وارتفاعِ فرعها، وإيتائِها أُكُلَها كل حين، ووصفِها بالبركة وأنها لا يؤخذ منها شيء إلا نفع؛ ونحو ذلك مما يدل على فضل النخلة وتميزها، وتشابهها مع المؤمن المطيع لله الذي قامت في قلبه كلمة الإيمان وانغرست في صدره، وأخذت تثمر الثمار اليانعة والخير المتنوع. ومن يتأمل في النخلة والمؤمن المطيع لله، يجد بينهما أوجهاً من الشبه كثيرة منها:

أن النخلة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، وكذلك الإيمان لا بد له من أصل وفروع وثمر؛ فأصله الإيمانُ بأصول الإيمان الستة المعروفة، وفروعه الأعمالُ الصالحةُ والطاعاتُ المتنوعة والقرباتُ العديدة؛ وثمراتها كلُّ خير يحصله المؤمن، وكلُّ سعادة يجنيها في الدنيا والآخرة.

والنخلة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنمّيها، فهي لا تحيا ولا تنمو إلا إذا سقيت بالماء؛ فإذا حُبس عنها الماءُ ذبلت، وإذا قطع عنها تماماً ماتت؛ وهكذا الشأن في المؤمن لا يحيا الحياة الحقيقية

---

(١) رواه الترمذي (٣١١٩)، مرفوعاً وموقوفاً. وقال الألباني رحمه الله: «ضعيف مرفوعاً، وصحيح موقوفاً».

ولا تستقيم له حياته، إلا بسقي من نوع خاص وهو سقيُ قلبه بالوحي: كلام الله، وكلام رسوله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وبهذا يعلم أن شجرة الإيمان في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، وإلا أوشكت أن تيبس.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**»(١).

ومن أوجه الشبه بين المؤمن والنخلة أن النخلةَ شديدةُ الثبوت، كما قال الله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم: ٢٤]. وهكذا الشأن في الإيمان إذا رسخ في القلب، فإنه يصير في أشد ما يكون من الثبات لا يزعزعه شيء، بل يكون ثابتاً كثبوت الجبال الرواسي. سئل الأوزاعي رحمه الله عن الإيمان أيزيد؟ قال: نعم حتى يكونَ مثلَ الجبال، قيل: أينقص؟ قال: نعم حتى لا يبقى منه شيء.

والنخلة لا تنبت في كل أرض، بل لا تنبت إلا في أراضٍ معينةٍ طيبةِ التربة، فهي في بعض الأماكن لا تنبت مطلقاً وفي بعضها تنبت ولكن لا تثمر، وفي بعضها تثمر ولكن يكون الثمر ضعيفاً، فليست كلُّ أرض تناسب النخلة. وهكذا الشأن في الإيمان فهو لا يثبت في كل قلب، وإنما يثبت في قلب من كتب الله له الهداية وشرح صدره للإيمان، والقلوب أوعية متفاوتة، وبعضها أوعى من بعض.

وقد وصفت النخلة في الآية بأنها شجرة طيبة، وهذا أعم من

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٤)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٥٨٥).

طيب المنظر والصورة والشكل، ومن طيب الريح وطيب الثمر وطيب المنفعة؛ والمؤمن كذلك أجلُّ صفاته الطيب في شؤونه كلها وأحوالها جميعها، في ظاهره وباطنه وفي سره وعلنه. ولهذا عندما يدخل المؤمنون الجنة، تتلقّاهم خزنتها قائلة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

والنخلة وصفت بأنها ما أخذت منها من شيء نفعك، كما في حديث ابن عمر المتقدم. فكل شيء في النخلة ينفع، وهكذا الشأن بالنسبة للمؤمن مع إخوانه وجلسائه؛ لا يرى فيه إلا الأخلاق الكريمة، والآداب الرفيعة، والمعاملة الحسنة، والنصح لجلسائه، وبذل الخير لهم. ولا يصلُ إليهم منه ما يضر، بل لا يصلُ إليهم منه إلا ما ينفع.

ثم إن قلب النخلة وهو الجمار من أطيب القلوب وأحلاها، إذ هو حلو الطعم جميل المذاق؛ وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب وأحسنها، لا يحمل إلا الخير، ولا يبطن سوى الاستقامةِ والصلاحِ والسلامةِ.

وثمر النخلة من أنفع ثمار العالم وله حلاوة لا تدانيها حلاوة، وكذلك الإيمان له حلاوة ولذة لا يذوقها إلا صحيح الإيمان.

عن أنس رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[1].

---

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

ثم إن النخل بينه تفاوت عظيم في شكله ونوعه وثمره، فليست النخيل في مستوى واحد في الحسن والجودة، بل بينه من التفاوت والتمايز الشيء الكثير؛ وهكذا الشأن بين المؤمنين، فالمؤمنون متفاوتون في الإيمان، وليسوا في الإيمان على درجة واحدة؛ بل بينهم من التفاوت والتفاضل الشيء الكثير، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

والنخلة كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها، وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله.

عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه: أن أعرابياً قال: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: «**من طال عمره، وحسن عمله**»[1].

فهذه بعض أوجه الشبه بين المؤمن وبين النخلة، يحيى بتأملها قلبُ المؤمن، ويزيدُ إيمانهُ ويقوى يقينه، ويعظم شكره وحمده لربه. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

بما تقدم يعلم أن الإيمان شجرة مباركة، عظيمة النفع، غزيرة الفائدة، كثيرة الثمر؛ لها مكان خاص تغرس فيه، ولها سقي خاص، ولها أصل وفرع وثمار. أما مكانها فهو قلب المؤمن، فيه توضع بذورها وأصولها، ومنه تتفرع أغصانها وفروعها.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٩٨).

وأما سقيها فهو الوحي المبين: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فبه تسقى هذه الشجرة، ولا حياة لها ولا نماء إلا به.

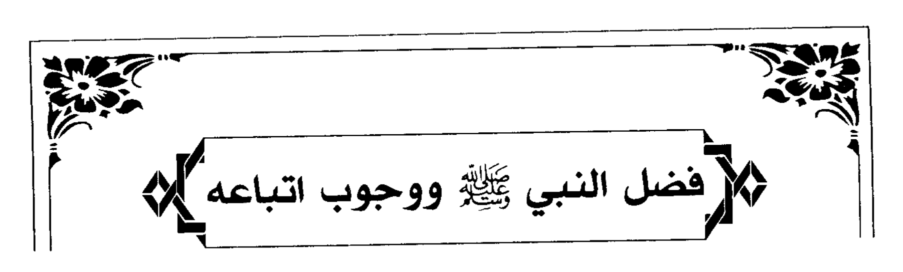
وأما أصلها فهو أصول الإيمان الستة، وأعلاها الإيمان بالله تعالى، فهو أصل أصول هذه الشجرة المباركة.

وأما فروعها فهي الأعمال الصالحة، والطاعات المتنوعة، والقربات العديدة التي يقوم بها المؤمن.

وأما ثمراتها فكل خير وسعادة ينالها المؤمن في الدنيا والآخرة، فهو ثمرة من ثمار الإيمان ونتيجة من نتائجه.

وإنا لنسأل الله الكريم أن يُعظم نماء هذه الشجرة الكريمة المباركة في قلوبنا، وأن يجعلنا من عباده المؤمنين المتقين، وأن يصلح لنا شأننا كله، فإنه سبحانه خير مسؤول وأفضل مأمول.





فضل النبي ﷺ ووجوب اتباعه

ليست حاجةُ أهلِ الأرض إلى الرسل كحاجتهم إلى الشمس والقمر، والرياح والمطر، ولا كحاجةِ الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظمُ من ذلك، وأشدُ حاجةً من كلِّ ما يُقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده، يدعونهم إلى دين الله ويبلغونهم رسالة الله، ويهدونهم إلى صراطه المستقيم.

وكان خاتمهُم وسيدهم وأكرمهم على ربه محمدُ بنُ عبد الله ﷺ يقول: «**يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة**»[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فبعثه الله رحمة للعالمين ومحجةً للسالكين، وحجةً على الخلائق أجمعين، وافترض على العباد طاعته ومحبّته، وتعزيرَه وتوقيرَه، والقيامَ بأداء حقوقه، وسد إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، وأخذ العهود والمواثيق بالإيمان به واتباعه على جميع الأنبياء والمرسلين، وأمرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين.

أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، فختم به الرسالة، وهدى به من

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٤٩٠).

الضلالة وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فأشرقت برسالته الأرضُ بعد ظلماتها، وتألفت بها القلوبُ بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء، وأوضح بها المحجة البيضاء، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذِّلة والصغار على من خالف أمره.

أرسله سبحانه على حين فترة من الرسل، ودروس من الكتب، كما قال ﷺ: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربَهم وعجمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»(١)، أرسله حين حرف الكلم، وبدلت الشرائع، واستند كلُّ قوم إلى أظلم آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، فهدى الله به الخلائق وأوضح به الطريق، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠ - ١١] فبصر به من العمَى، وأرشد به من الغي، وجعله قسيمَ الجنة والنار، وفَرْقَ ما بين الأبرار والفجار، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته.

وامتحن به الخلائق في قبورهم، فهم في القبور عنه مسؤولون، وبه ممتحنون.

فعن أنس رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**العبد إذا وُضع في قبره وتُوُلِّي وذهب أصحابه - حتى إنه ليسمع قرع نعالهم - أتاه ملكان فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال: انظر إلى مقعدك من النار،**

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

أبدلك الله به مقعداً من الجنة». قال النبيُّ ﷺ: **«فيراهما جميعاً. وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دَرَيْت ولا تَلَيْتَ. ثم يُضرب بِمِطرَقَةٍ من حديدٍ ضربةً بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يَليه إلا الثقلين»**[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذَا قُبرَ المَيِّتُ** (أوْ قال: **أحَدُكُمْ) أتَاهُ مَلكانِ أَسْوَدانِ أَزْرَقَانِ. يُقالُ لأَحَدِهِما: المُنْكَرُ والآخَرُ النَّكيرُ. فيقولان: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ ما كان يقولُ: هو عبدُ الله ورسولُهُ. أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأن مُحمداً عبدُهُ ورسولُهُ. فيقولان: قد كنا نعلمُ أنَّكَ تقولُ هذا. ثم يُفْسَحُ له في قبْرِهِ سبعونَ ذِراعاً في سَبْعينَ. ثم يُنوَّرُ له فيه. ثم يقالُ له: نَمْ. فيقولُ: أرْجعُ إلى أهلي فَأخْبرُهُم؟ فيقولان: نَمْ كنومَةِ العروسِ الذي لا يُوقِظُهُ إلا أحبُّ أهلِه إليهِ، حتى يبْعثَهُ الله من مَضْجَعِهِ ذلِكَ. وإن كان مُنافقاً قال: سمعتُ الناسَ يقولونَ فقلتُ مثلهُ. لا أدري. فيقولان: قد كُنّا نَعْلَمُ أنك تقولُ ذلكَ. فيُقالُ للأرضِ: التَئمي عليهِ. فتلْتَئمُ عليهِ. فتختلفُ أضْلاعُهُ. فلا يَزالُ فيها مُعذَّباً حتى يبعَثَهُ الله من مضجَعِهِ ذلكَ»**[2].

وقد أمر الله بطاعة رسوله ﷺ في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن، وقرن طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته، كما قرن بين اسمه واسمه، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤] قال: لا أذكر إلا ذكرت معي، وهذا كالتشهد والخطب والأذان يقال فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن

---

(١) رواه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

(٢) رواه الترمذي (١٠٧١)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٨٥٦).

محمداً عبده ورسوله، فلا يصح الإسلام إلا بذكره والشهادة له بالرسالة، وكذلك لا يصحُّ الأذان إلا بذكره والشهادة له بالرسالة، ولا تصح الصلاة إلا بذكره والشهادة له بالرسالة.

وقد حذر الله سبحانه من مخالفته أشد التحذير، فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وكذلك ألبس الله سبحانه الذلة والصغار لمن خالف أمره.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذلة والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[(١)].

وكما أن من خالفه وشاقه وعاداه هو الشقي الهالك، فكذلك من أعرض عنه وعما جاء به واطمأن إلى غيره ورضي به بدلاً منه هو هالك أيضاً، فالشقاء والضلال في الإعراض عنه وفي تكذيبه، والهدى والفلاح في الإقبال على ما جاء به وتقديمه على كل ما سواه، فالأقسام ثلاثة: المؤمنُ به؛ وهو المتبعُ له المحبُّ له، المقدمُ له على غيره، والقسمان الآخران هما: المعادي له المنابذُ له، والمعرض عما جاء به. فالأول هو السعيد، والآخران هما الهالكان[(٢)].

إن عَدَّ فضائل النبي ﷺ، وذكرَ مناقبه وخصائصه وشمائله ومحاسنه، أمرٌ تأنس به القلوب المؤمنة، وتبتهج به النفوس الصادقة،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٨٣١).

(٢) انظر: مجموع فتاوى لابن تيمية (١٩/ ١٠٠ ـ ١٠٥).

وتتعطر به المجالسُ الصالحة، كيف لا وهو سيدُ ولد آدم، وإمامُ الخلق كلِّهم، وأحبُ عباد الله إليه، فهو رسوله المصطفى وخليله المجتبى، بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أدرك تمامَ الإدراك الرعيلُ الأولُ من هذه الأمة، الصحابةُ الكرامُ ﷺ وأرضاهم فضلَ هذا النبي الكريم عليه الصلاةُ والسلام ومكانتَه، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وقدموا محبته على النفس والنفيس، وبذلوا مهجهم وأوقاتهم وأموالهم في سبيل نصرته، وعزروه، ووقروه، وقاموا بحقوقه على التمام والكمال، فكانوا أحق الناس به، وأولاهم بمرافقته، وأهداهم سبيلاً في اتباعه ولزوم نهجه.

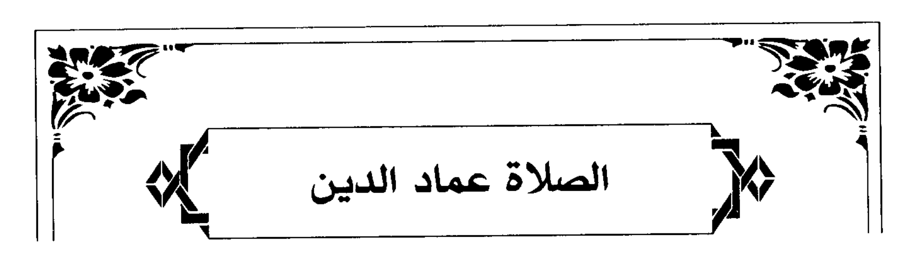
قال عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما: «من كان مستناً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خيرَ هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحابُ محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم، واللهِ ورب الكعبة».

وفي خضم غربة الدين وقلة المعرفة والدراية بهدي سيد الأنبياء والمرسلين، نشأ في أوساط بعض المسلمين أمور غريبة ومحدثات عجيبة، أراد بعضهم التعبير من خلالها عن محبته للنبي ﷺ، فاتخذوا يوم مولده عيداً ويوم هجرته إلى المدينة محتفلاً وليلة الإسراء به موسماً ونحو ذلك من الأيام، فيجتمعون فيها على إنشاد القصائد وتلاوة المدائح وقراءة الأراجيز، وهؤلاء وإن كان قصدهم بذلك إظهارَ محبة النبي ﷺ وهو قصد حسن، إلا أن إظهار محبته عليه الصلاة والسلام لا تصح إلا باتباعه ولزوم نهجه وترسم خطاه، ولهذا لم ينقل عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة المعتبرين شيء من هذه الأمور المحدثة. والموفق من اتبع خطاهم ولزم نهجهم

وسلك سبيلهم، فهم أهدى أمةِ محمد ﷺ سبيلاً، وأقومهُم قيلاً، وأحسنُهم طريقاً، ألحقنا الله وإياكم بهم، ورزقنا متابعتهم وسلوكَ سبيلهم، وجعلنا جميعاً من عباده المتقين.

ونسأله سبحانه أن يجعلنا من المتبعين له، المؤمنين به، وأن يحيينا على سنته ويتوفانا عليها، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته وتحت لوائه، وأن يمنَّ علينا بشفاعته، وأن يغفر لنا خطأنا وتقصيرنا؛ إنه سبحانه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.





الصلاة عماد الدين

إنَّ من أوجب الواجبات التي أوجبها الله على عباده وأجل الفرائض التي افترضها الصلاة.

فالصلاة عماد الدين وآكد أركانه بعد الشهادتين، وهي الصلة بين العبد وربه، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فإذا صلحت صلح سائر عمله، وإذا فسدت فسد سائر عمله، وهي الفارقة بين المسلم والكافر، فإقامتها إيمان، وإضاعتها كفر، فلا دين لمن لا صلاة له، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، ومن حافظ عليها كانت له نوراً في قلبه ووجهه وقبره وحشره، وكانت له نجاة يوم القيامة، وحشر مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة، وحشر مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف.

يقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتاب الصلاة»: جاء في الحديث: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة»[1]. وقد كان عمر بن الخطاب يكتب إلى الآفاق: إنَّ أهمَّ أموركم عندي الصلاة فمن حفظها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، قال: فكل مستخف بالصلاة مستهين بها فهو مستخِفٌّ

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» رقم (٧٩) ـ رواية يحيى الليثي ـ، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من قوله.

بالإسلام مستهينٌ به، وإنَّما حظهم في الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتُهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة، فاعرف نفسك يا عبد الله واحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك، فإنَّ قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصلاة عمود الدين**»[1]. ألست تعلم أنَّ الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ولم ينتفع بالطنب ولا بالأوتاد، وإذا قام عمود الفسطاط انتفع بالطنب والأوتاد، وكذلك الصلاة من الإسلام، وجاء في الحديث: «**إنَّ أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن تقبلت منه صلاة تقبل منه سائر عمله**»[2]. فصلاتنا آخر ديننا وهي ما نسأل عنه غداً من أعمالنا يوم القيامة، فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين، إذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام» انتهى كلام الإمام أحمد رحمه الله.

لا يختلف المسلمون أنَّ ترك الصلاة المفروضة عمداً من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأنَّ إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنَّه متعرض لعقوبة الله وسخطه، وخزيه في الدنيا والآخرة، ثم إنَّهم اختلفوا في

---

(١) أورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٥١٨٦)، وقال: رواه أبو نعيم الفضل بن دكين في «الصلاة» عن عمر. وضعفه الألباني رحمه الله في «ضعيف الجامع» (٣٥٦٧).
ويشهد له حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: عن النبيِّ ﷺ قال: «**رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعَمودُهُ الصَّلاةُ**...» رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣). وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (٢٨٦٦).

(٢) أخرج معناه الترمذي (٤١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣٣٧).

قتله وفي كيفية قتله وفي كفره، وأقوالهم في هذا وذكر أدلتهم وما احتج به أهل كل قول مبسوطة في كتب أهل العلم المعروفة، وليس هذا مجال بسطها.

ومن قال من أهل العلم بكفر تارك الصلاة قد احتج لذلك بأدلة قوية من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأقل أحوال هذه الأدلة أنَّها تبعث في قلب المسلم الحريص حب الصلاة وتعظيمها ومعرفة قدرها، وتحرك في نفسه حب المحافظة عليها والعناية بها وأدائها في وقتها كما أوجب الله.

يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٤٧].

فأخبر تعالى أن تارك الصلاة من المجرمين السالكين في سقر، وهو واد في جهنم.

ويقول تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)﴾ [مريم: ٥٩]، وقد جاء عن ابن مسعود أن غيّاً نهر في جهنم، خبيث الطعم، بعيد القعر، فيا عظم مصيبة من لقيه ويا شدة حسرة من دخله!!

ويقول تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، فعلق أخوَّتهم للمؤمنين بفعل الصلاة، فدل ذلك على أنَّهم إن لم يفعلوها فليسوا بإخوان لهم.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥)﴾ [السجدة: ١٥].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ [المرسلات: ٤٨ ـ ٤٩]، ذكر هذا بعد قوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: ٤٦].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»(١).

وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»(٢).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك الصلاة متعمداً، فقد برئت منه ذمة الله**»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تُخفروا الله في ذمته**»(٤). وفي رواية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: من شهد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم: له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم(٥).

وعن محجن الأسلمي رضي الله عنه: أنَّه كان في مجلس مع النبي ﷺ فأذن بالصلاة، فقام النبي ﷺ ثم رجع ومحجن في مجلسه، فقال: «**ما منعك أن تصلي ألست بمسلم؟**» قال: بلى ولكني صليت في

---

(١) رواه مسلم (٨٢).

(٢) رواه أحمد (٥/٣٤٦)، والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤١٤٣).

(٣) رواه أحمد (٥/٢٣٨)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (٥٧٠).

(٤) رواه البخاري (٣٩١).

(٥) أخرجها البخاري (٣٩٣).

أهلي، فقال له: «**إذا جئت فصل مع الناس وإن كنت قد صليت**»[١].

وقد جاء عن الصحابة ﭫ في هذا المعنى آثار كثيرة، منها ما جاء عن عمر بن الخطاب ﭬ أنَّه قال: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة»، وقال: «لا إسلام لمن ترك الصلاة»، قاله بمحضر من الصحابة ولم ينكر عليه، بل قال مثل قوله هذا غير واحد من الصحابة: منهم معاذ بن جبل وعبد الرحمن بن عوف وأبو هريرة وعبد الله بن مسعود وغيرهم.

وعن ابن مسعود ﭬ قال: «من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهنَّ، فإنَّهن من سنن الهدى، وإنَّ الله شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنَّكم لو صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلِّف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى بها يُهَادَى بين الرجلين حتى يقام في الصفّ»[٢].

فإذا كان هذا شأن من لا يشهد الصلاة مع الجماعة يعده الصحابة منافقاً معلوم النفاق، فكيف إذن بالتارك لها؟! نسأل الله السلامة.

إنَّ ميزان الصلاة في الإسلام عظيم، ومنزلتها عالية، وقد

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٤)، ومالك (٢٩٣)، والنسائي (٨٥٧). وصححه الألباني ﵀ في «صحيح سنن النسائي» (٨٢٦).

(٢) رواه مسلم [٢٥٧ ـ (٦٥٤)].

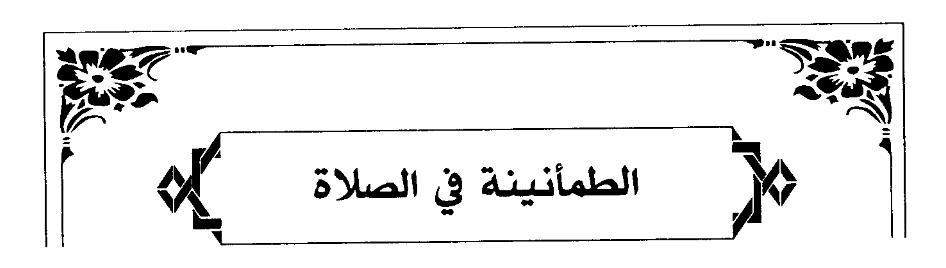
فرضها الله على نبيه محمد ﷺ من غير واسطة، من فوق سبع سماوات عندما عرج به ﷺ إلى السماء.

وقد ورد فيها غير ما تقدم مما يدل على فضلها وعظم قدرها وشدة عقوبة تاركها، نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، والمقام لا يسمح لأكثر من هذا.

ومع هذا فقد خف ميزان الصلاة عند كثير من الناس حتى عند بعض طلبة العلم الشرعي والله المستعان، فمن الناس من تهاون بها، ومنهم من تهاون بشروطها وأركانها وواجباتها فلا يأتي بها على وجهها، ومنهم من يتهاون بالصلاة مع الجماعة، وهذا من علامات المنافق عند الصحابة.

فالواجب علينا أن نحافظ على هذه الطاعة الجليلة والعبادة الجليلة التي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأن نحذر أشد الحذر من سبيل المجرمين، قال ﷻ: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨].





الطمأنينة في الصلاة

إن من الأخطاء العظيمة التي يقع فيها بعض المصلين ترك الطمأنينة في الصلاة، وقد عد النبي ﷺ فاعل ذلك من أسوء الناس سرقة. فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أسوأُ الناسِ سرقةً الذي يسرقُ من صلاتِهِ**» قالوا: يا رسول الله، وكيف يسرق من صلاته؟ قال: «**لا يتمُّ ركوعَهَا ولا سجودَهَا**» ـ أو قال: «**لا يقيمُ صُلبَهُ في الرُّكُوعِ والسُّجُودِ**»[1] ـ. فعَدَّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ السرقة من الصلاة، أسوَأَ وأشدَّ من السرقة من المال.

إن الطمأنينة في الصلاة ركن من أركان الصلاة، لا تصح الصلاة بدونها، وقد قال ﷺ للمسيءِ صلاته: «**إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم اجلس حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**»[2]. وقد أخذ أهل العلم من هذا الحديث أن من لم يقم صلبه في الركوع والسجود، فإن صلاته غيرُ مجزئة وعليه إعادتها، كما قال ﷺ لهذا المسيء في صلاته: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»[3].

لقد وردت في السنة أحاديثُ كثيرةٌ جداً في الأمر بإقامة الصلاة

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣١٠)، والحاكم (١/ ٢٢٩). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٩٨٦).

(٢) (٣) رواه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وإتمامها، والتحذيرِ من ترك الطمأنينة فيها أو الإخلالِ بأركانها وواجباتها. ومن ذلك غير ما تقدم، ما ورد عن أنس بن مالك ﵁: أن النبي ﷺ قال: «**أتموا الركوع والسجود**»[1]، والإتمام إنما يكون بالطمأنينة. ومن الأدلة أيضاً ما جاء عن عليِّ بنِ شيبانَ ﵄ ـ وكان من الوفد ـ قال: خرجنا حتى قدمنا على رسول الله ﷺ، فبايعناه وصلينا خلفه. فَلَمَحَ بمؤخِّرِ عينه رجلاً لا يُقيمُ صلاته ـ يعني: صُلْبَهُ ـ في الركوع والسجود. فلما قضى النبيُّ ﷺ الصلاة، قال: «**يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، لا صَلاةَ لِمَنْ لا يُقِيمُ صُلْبَهُ في الرُّكوعِ والسّجود**»[2]. أي لا يسوي ظهره عقب الركوع والسجود، فالحديث دليل على ركنية القومة والجلسة والطمأنينة فيهما.

وعن أبي صالح الأشعريِّ، أن أبا عبدِ اللهِ الأشعريَّ حدّثه: أنَّ رسولَ الله ﷺ بَصُرَ برجلٍ يصلِّي لا يتمُّ ركوعَهُ ولا سجودَهُ، فقال: «**لو ماتَ هذا على ما هُوَ عليهِ، لماتَ على غيرِ ملَّةِ محمدٍ ﷺ. فأتِمُّوا الرُّكوعَ والسُّجودَ، فإن مَثَلَ الذي لا يتمُّ ركوعَهُ ولا سجودَهُ، مَثَلُ الجائعِ لا يأكلُ إلا التَّمرةَ والتَّمرتَيْنِ، لا تُغْنِيانِ عنهُ شيئاً**». قال أبو صالح: فلقيتُ أبا عبد الله فقلتُ: من حدَّثك هذا الحديثَ، أنه سمعه من رسول الله ﷺ؟ قال: حدثني أمراءُ الأجنادِ: خالدُ بنُ الوليدِ، وشُرَحْبيلُ بن حَسَنَةَ، وعمرُو بنُ العاص أنهم سمعوهُ من النبيِّ ﷺ[3]. وهذا تهديد شديد يخشى على فاعل ذلك من سوء الخاتمة، بأن يموت على غير الملة والعياذ بالله.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤٤)، ومسلم (٤٢٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٨٧١)، وأحمد (٤/ ٢٣). وصححه الألباني ﵀ في «صحيح الترغيب» (٥٢٦).

(٣) رواه أبو يعلى (٧١٨٤)، وحسنه الألباني ﵀ في «صحيح الترغيب» (٥٢٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ بثلاثٍ، ونهاني عن ثلاثٍ... ونهاني عن نَقْرَةٍ كنَقْرَةِ الدِّيكِ، وإقعاءٍ كإقعاءِ الكلبِ، والتفاتٍ كالتفاتِ الثَّعْلَبِ[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه: رأى رجلاً لا يتمُّ ركوعَهُ ولا سجودَهُ، فلما قضى صلاتَهُ قال له حذيفةُ: ما صلَّيتَ ـ قال: وأحسِبُهُ قال: لو مُتَّ، مُتَّ على غيرِ سنَّةِ محمدٍ ﷺ[2] ـ. وفي رواية: ولو مُتَّ، مُتَّ على غيرِ الفطرةِ التي فَطَرَ اللهُ محمداً ﷺ[3].

وعن طَلْقِ بنِ عليٍّ الحنفيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا ينظُرُ اللهُ عز وجل إلى صلاةِ عبدٍ، لا يُقيمُ فيها صُلْبَهُ بينَ ركوعِهَا وسجودِهَا»**[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ... وكان ـ أي رسول الله ﷺ ـ إذا رفعَ رأسَهُ من الركوعِ، لم يسجُدْ حتى يستويَ قائماً. وكان إذا رفعَ رأسَهُ من السَّجدَةِ، لم يسجُدْ حتى يستويَ جالساً[5].

إن الأحاديث المشتملة على الأمر بالمحافظة على إقامة الركوع والسجود والرفع منهما، والدالة على أن ذلك من أركان الصلاة التي لا تصح الصلاة إلا بها كثيرة جداً، وهي محفوظة في دواوين السنة كالبخاري ومسلم والسنن الأربعة وغيرها، وقد تقدم معنا جملة منها.

والواجب على كل مسلم أن يحافظ على ذلك في صلاته تمام المحافظة، فيتم ركوعه والرفعَ منه وسجوده والرفعَ منه، ويأتي بذلك

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣١١)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صفة الصلاة» ص(١٣١).
(٢) رواه البخاري (٣٨٩). (٣) أخرجها البخاري (٧٩١).
(٤) رواه أحمد (٤/ ٢٢)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٥٣٦).
(٥) رواه مسلم (٤٩٨).

على التمام والكمال في صلاته كلها، على الوجه الذي يرضي الرب تبارك وتعالى، عملاً بهدي الرسول ﷺ وتمسكاً بسنته، القائل ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[١]. اللهم اجعلنا من المقيمينَ الصَّلاةَ.

وقد ذهب علماءُ المسلمين استناداً إلى ما تقدم من النصوص الثابتة عن الرسول ﷺ وغيرها، إلى أن تعديل الأركان في الركوع والسجود والقومة بينهما والقعدة بين السجدتين فرض في الصلاة وركن من أركانها، تبطل الصلاة بتركه ويلزم من وقع في ذلك إعادة الصلاة.

والنقول عنهم في ذلك كثيرة جداً لا يمكن سردها ولا قليل منها في هذا المقام، لكن أكتفي بنقلٍ واحد في ذلك عن إمام جليل وهو الإمامُ القاضي أبو يوسفَ تلميذُ الإمام أبي حنيفة رحمهما الله، فقد قال أبو يوسف رحمه الله: «تعديل أركان الصلاة وهو الطمأنينة في الركوع والسجود، وكذا إتمام القيام بينهما، وإتمام القعود بين السجدتين فرض تبطل الصلاة بتركه». وقد نقله عنه غيرُ واحد من أهل العلم.

إن الواجب على كلِّ مسلم أن يحافظ على صلاته وإقامتها تمام المحافظة في شروطها وأركانها وواجباتها وسننها، ويأتي بذلك كلِّه على التمام والكمال، فهي أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن أولَ ما يُحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ من عملِهِ صلاتُهُ. فإنْ صَلَحَتْ فقد أفلَحَ وأنجَحَ، وإن فسدَتْ فقد خابَ وخَسِرَ**»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٦٣١)، من حديث مالك بن الحُوَيْرِثِ رضي الله عنه.

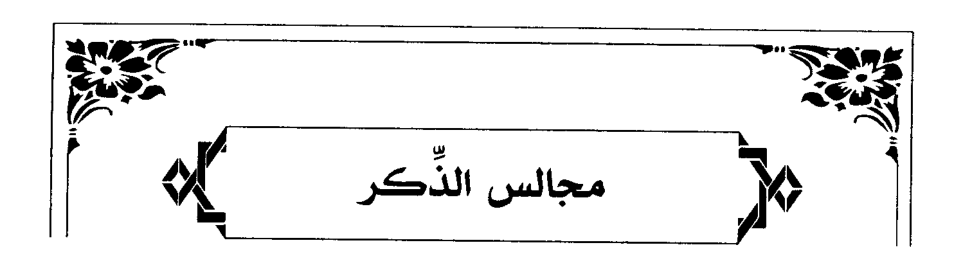
(٢) رواه الترمذي (٤١٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣٣٧).

والله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. ويقول تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ويقول تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٤، ٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية في معنى قوله سبحانه: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: إما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها؛ فاللفظ يشمل هذا كلَّه، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم نصيبه منها وكمل له النفاق العملي.

أعاذنا الله وإياكم من ذلك، ووفقنا الله وإياكم للعمل بكتابه والتمسك بسنة نبيه ﷺ، وجعلنا وإياكم من المقيمين الصلاة المتمِّين لأركانها وشروطها وواجباتها، وأن يتقبل منا صالح القول وسديد العمل، وأن يغفر لنا ما كان من خطأ أو تقصير أو زلل. إنه هو الغفور الرحيم.





مجالس الذِّكر

إنَّ خيرَ المجالس وأزكاها وأشرفها وأعلاها قدراً عند الله وأجلَّها مكانةً عنده مجالسُ الذكر، فهي حياة القلوب ونماءُ الإيمان وزكاءُ النفس وسبيلُ السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، ولهذا ورد في فضلها والحث على لزومها والترغيب في المحافظة عليها نصوصٌ كثيرةٌ في الكتاب والسنة، مما يدلُّ على شريف قدر تلك المجالس ورفيع شأنها وعلوِّ مكانتها وأنَّها خيرُ المجالس. إنَّ مجالس الذكر هي رياض الجنة في الدنيا. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**»[1]. ورواه ابن أبي الدنيا وغيره من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيُّها الناس ارتعوا في رياض الجنة**»، قلنا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: «**مجالس الذكر**»[2]. ويروى أيضاً من حديث ابن عمر وأبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم، وهو حسن بمجموع طرقه[3].

فمن شاء أن يسكن رياض الجنة في الدنيا، فليستوطن مجالس الذكر فإنها رياض الجنة.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٥٠)، والترمذي رقم (٣٥١٠). وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٧).

(٢) «المستدرك» (١/ ٤٩٤).

(٣) انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٢٥٦٢).

ومجالس الذكر هي مجالس الملائكة، فإنه ليس من مجالس الدنيا مجلسٌ إلا مجلسٌ يُذكر اللهُ تعالى فيه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لله ملائكةً فُضُلاً، يطوفون في الطُّرق يلتمسون أهل الذِّكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلُمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السّماء الدنيا، قال: فيسألُهم ربُّهم تعالى وهو أعلمُ بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يُسبِّحونك ويكبِّرونك ويحمِدونك ويمجِّدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تحميداً وتمجيداً، وأكثرَ لك تسبيحاً، قال: فيقول: ما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنّة، قال: فيقول: هل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا ربِّ ما رأوها، قال: فيقول: فكيف لو أنّهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنّهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حِرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظمَ فيها رغبةً، قال: فيقول: فممَّ يتعوّذون؟ قال: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا ربِّ ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافةً، قال: يقول: فأشهدُكم أنّي قد غفرتُ لهم. قال: فيقول ملَكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم، إنَّما جاء لحاجة، قال: همُ الجلساءُ لا يشقى بهم جليسُهم**»[1].

فمجالس الذكر هي مجالس الملائكة بخلاف مجالس الغفلة واللّهو والباطل فإنَّها مجالس الشياطين، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]. إنَّ مجالس الذكر تؤمِّن العبد من الحسرة والندامة يوم القيامة بخلاف

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٤٠٨)، ومسلم رقم (٢٦٨٩).

مجالس اللّهو والغفلة فإنَّها تكون على صاحبها حسرةً وندامةً يوم القيامة، فعن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: «**من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله تِرَةٌ، ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله تِرَةٌ**»(١)، أي نقص وتبعة وحسرة.

ومن شرف مجالس الذكر وعلو مكانتها عند الله أنَّ الله ﷻ يباهي بالذاكرين الملائكة، كما ثبت عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: خرج معاويةُ على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكرُ اللهَ تعالى. قال: آللهِ ما أجلسكم إلّا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلّا ذاك، قال: أما إنّي لم أستحْلِفْكم تُهمَةً لكم، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثاً منّي، وإنّ رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «**ما أجلسكم؟**»، قالوا: جلسنا نذكرُ اللهَ تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا، قال: «**آللهِ ما أجلسكم إلّا ذاك؟**»، قالوا: والله ما أجلسنا إلّا ذاك، قال: «**أما إنّي لم أستحْلِفْكم تُهمَةً لكم، ولكنَّه أتاني جبريل فأخبرني أنَّ الله تبارك وتعالى يُباهي بكم الملائكة**»(٢).

ومجالس الذكر سببٌ عظيمٌ من أسباب حفظ اللسان وصونه عن الغِيبة والنميمة والكذب والفحش والسخرية والباطل، فإنَّ العبد لا بدَّ له من أن يتكلّم وما خلق اللِّسان إلا للكلام، فإنْ لم يتكلّم بذكر الله تعالى وذكر أوامره وبالخير والفائدة، تكلّم ولا بُدَّ بهذه المحرَّمات أو ببعضها، فمن عوَّد لسانه على ذكر الله صان لسانه عن الباطل واللغو،

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٨٥٦)، وحسنه العلامة الألباني ﵀ في «السلسلة الصحيحة» رقم (٨٧).

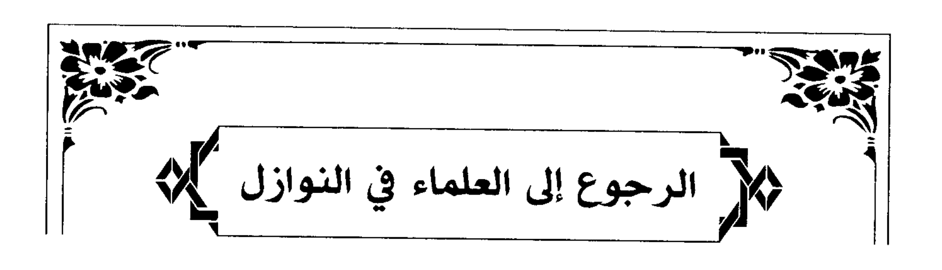
(٢) رواه مسلم (٢٧٠١).

ومن يَبُس لسانه عن ذكر الله نطق بكلِّ باطل ولغوٍ وفحش.

ومما ينبغي للمسلم أن يتفطّن له في هذا المقام أنَّ ذكر الله تعالى لا يختصُّ بالمجالس التي يذكر فيها اسم الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوه، بل تشمل ما ذكر فيه أمر الله ونهيه وحلاله وحرامه وما يحبه ويرضاه، بل إنَّه ربما كان هذا الذكر أنفع من ذلك لأنَّ معرفةَ الحلال والحرام واجبةٌ في الجملة على كلِّ مسلم بحسب ما يتعلَّق به من ذلك، وأما ذكرُ الله باللسان فأكثره يكون تطوُّعاً وقد يكون واجباً كالذكر في الصلوات المكتوبة، وأما معرفةُ ما أمر الله به وما يحبُّه ويرضاه وما يكرهه فيجب على كلِّ من احتاج إلى شيءٍ من ذلك أن يتعلّمه.

ولهذا كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا ذكر قول النبي ﷺ: «**رياض الجنة حلق الذكر**» يقول: «أما إني لا أعني القُصّاص ولكن حلق الفقه»، ورُوي عن أنس معناه. وقال عطاء الخراساني: «مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق وأشباه هذا»، وقال يحيى بن أبي كثير: «درس الفقه صلاة». وكان أبو السَّوّار العدوي في حلقة يتذاكرون العلم ومعهم فتى شاب فقال لهم: قولوا: سبحان الله والحمد لله، فغضب أبو السَّوّار، وقال: ويحك في أيِّ شيءٍ كنا إذاً؟! والآثار في هذا المعنى كثيرةٌ.

ولهذا فإنَّ المعاقل العلمية والمؤسسات الشرعية كالجامعات الإسلامية والمعاهد الدينية ونحوها مما يعتنى فيها بتعليم الناس الشريعة وتفقيههم في دينهم وتبصيرهم بالحلال والحرام والحق والباطل والهدى والضلال وتتلى فيها آيات الله ويدرس فيها حديث رسول الله ﷺ وينشر فيها العلم، هي بلا شك ولا ريب من مجالس الذكر التي يندب في الشريعة إلى الجلوس إليها والإفادة منها.



الرجوع إلى العلماء في النوازل

لا يخفى على كلِّ مسلم مكانةُ أهلِ العلمِ وأئمةِ الدين ورفعةُ شأنهم وعلوُّ منزلتهم وسمو قدرهم، فهم في الخَير قادةٌ وأئمة تقتصُّ آثارهم ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، فهم مصابيح الدجى ومنارات خير وأئمة هدى، بلغ بهم علمهم منازل الأخيار ودرجات المتقين الأبرار، قد سمت بالعلم منزلتهم وعلت مكانتهم وعظم شأنهم وقدرهم. كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ومن فضلهم أن الملائكة تضع أجنحتها خُضْعَاناً لقولهم، ويستغفر لهم كلُّ رطب ويابس حتى الحيتانُ في الماء. وهم ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، والوارث قائم مقام المورِّث فله حكمه فيما قام مقامه فيه.

ففي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالِمَ ليستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتانُ في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم،**

فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

فالعلماء ورثوا ما جاء به الأنبياء من العلم، فهم خلفوا الأنبياءَ في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته والنهي عن المعاصي والذود عن دين الله، وهم في مقام الرسل بين الله وبين خلقه بالنصح والبيان والدلالة والإرشاد، وإقامة الحجة وإزالة المعذرة وإبانة السبيل.

قال محمد بن المنكدر: «إن العالم بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل عليهم». وقال سفيان بن عيينة: «أعظمُ الناس منزلةً من كان بين الله وبين خلقه: الأنبياءُ والعلماء».

وقال سهل بن عبد الله: «من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء، يجيء الرجل فيقول: يا فلان ما تقول في رجل حلف على امرأته كذا وكذا؟ فيقول: طلقت امرأته. ويجيء آخر فيقول: ما تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: يَحْنَثُ بهذا القول، وليس هذا إلا لنبي أو عالم فاعرفوا لهم ذلك».

وقال ميمون بن مهران: «إن مثل العالم في البلد كمثل عين عذبة في البلد».

وإذا كان أهل العلم بهذه المنزلة العلية والدرجة الرفيعة، فإن الواجب على من سواهم أن يحفظ لهم قدرهم ويعرف لهم مكانتهم وينزلهم منازلهم.

عن عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**ليسَ من أمَّتي من لَمْ يُجِلَّ كبيرَنا، ويرحَمْ صغيرَنا، ويعرِفْ لِعَالِمِنَا**»[2].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، والدارمي (٣٤٢). وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (٧٠).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٢٣)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (١٠١).

وإن من حق العلماء ألا يفتاتَ عليهم فيما هم أهله والجديرون به، ألا وهو بيان دين الله وتقرير الأحكام ونحو ذلك بالتقدم عليهم أو التقليل من شأنهم أو التعسف في تغليطهم أو صرف الناس عنهم، أو غير ذلك مما هو سبيل الجاهلين ممن لا يعرفون قدر العلماء ومكانتهم. ومن المعلوم لدى كل الناس أن التعويل في كل فَنٍّ لا يكون إلا على أهل الاختصاص فيه؛ فلا يرجع في الطِّبِّ إلى المهندسين، ولا في الهندسة إلى الأطباء؛ ولا يرجع في أي فن إلا إلى أهل الاختصاص فيه، فكيف الشأن بعلم الشريعة ومعرفة الأحكام والفقه في النوازل، كيف يرجع فيها إلى من ليس معروفاً بالتضلع في هذا العلم والرسوخ فيه، ولا يرجع إلى العلماء الجهابذة والأئمة الراسخين أهل الفقه والدراية والفهم والاستنباط.

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

والمراد بأولي الأمر في الآية أي العلماء الراسخون الذين يحسنون استنباط الأحكام الشرعية من أدلة الكتاب والسنَّة، لأن النصوص الصريحة لا تفي ببيان جميع المسائل الحادثة والأحكام النازلة، ولا يُحسن استنباطَ ذلك واستخراجَه من النصوص إلا العلماءُ الراسخون.

قال أبو العالية في معنى ﴿أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ﴾ في الآية: هم أهل العلم، ألا ترى أنه يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾.

وعن قتادة ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ يقول:

إلى علمائهم، ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾: لعلمه الذين يفحصون عنه ويهمّهم ذلك.

وعن ابن جريج: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ حتى يكون هو الذي يخبرهم، ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أولي الفقه في الدين والعقل.

قال الحافظ ابنُ حجر في كتابه فتح الباري: «ونقل ابن التين عن الداودي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، قال: أنزل ﷻ كثيراً من الأمور مجملاً ففسر نبيه ما احتيج إليه في وقته، وما لم يقع في وقته وَكَلَ تفسيره إلى العلماء بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]».

وقال العلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في معنى الآية: «هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبةٌ، عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر؛ بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها. فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور: ينبغي أن يولّى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من

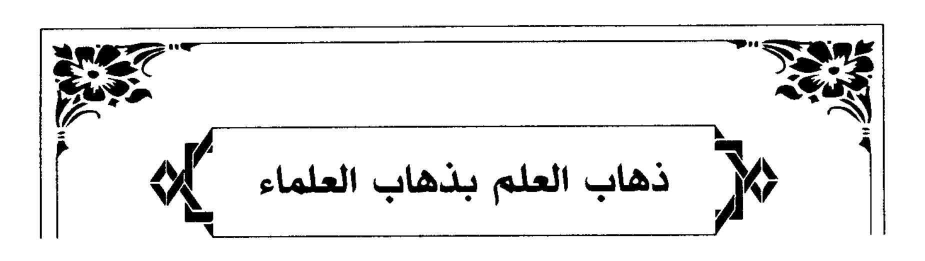
الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه: هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان، أم لا فيُحْجِم عنه». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وبما تقدم يُعلم أيها الإخوة المستمعون أن أمر البت في النوازل والحوادث المستجدة وإيضاحَ حكمِ الشرع فيها، ليس لأحد أن يخوض فيه إلا العلماء أهل البصيرة في الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والمنصب والولاية لا يجعل من ليس عالماً مجتهداً عالماً مجتهداً، ولو كان الكلام في العلم والدين بالولايات والمنصب لكان الخليفة والسلطان أحقَّ بالكلام في العلم والدين، وبأن يَستفتيه الناسُ، ويرجعوا إليه فيما أشكل عليهم في العلم والدين. فإذا كان الخليفة والسلطان لا يدَّعِي ذلك لنفسه، ولا يُلزم الرعية حكمَه في ذلك بقول دون قول إلا بكتاب الله وسنة رسولِه ﷺ، فمن هو دون السلطان في الولاية أولى بأن لا يتعدى طوره» ا.هـ.

وإنا لنسأل الله جل وعلا أن يبارك لنا في علمائنا وأن ينفعنا بعلومهم، وأن يجزيهم عنا خير الجزاء وأوفره إنه سميع مجيب.





ذهاب العلم بذهاب العلماء

لا يخفى على كلِّ مسلم مكانةُ العلماء ورفعةُ شأنهم وعلوُّ منزلتهم وسموُّ قدرهم، إذ هم في الخير قادةٌ وأئمَّةٌ تُقتص آثارُهم، ويُقتدى بأفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم، تضع الملائكةُ أجنحتها خُضْعَاناً لقولهم، ويستغفر لهم كلُّ رطب ويابس حتى الحيتان في الماء، بلغ بهم علمهُم منازل الأخيار، ودرجاتِ المتَّقين الأبرار، فسمت به منزلتهم، وعلت مكانتهم، وعظم شأنُهم وقدرُهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ولهذا فإنَّ فقدَهم خسارةٌ فادحة، وموتَهم مصيبة عظيمة، لأنَّهم نورُ البلاد، وهداة العباد، ومنار السبيل، فقبضهم قبضٌ للعلم، إذ إنَّ ذهابَ العلم يكون بذهاب رجاله وحملته وحفاظه.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبِضُ العلمَ بقبضِ العلماءِ**»[1].

ولهذا لما مات زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من سره أن ينظر كيف ذهاب العلم فهكذا ذهابه» أي: أنَّ ذهابه إنَّما يكون بذهاب أهله وحملته.

---

(١) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله».

ولهذا يُعدُّ موتُ العالم خسارةً فادحة، ونقصاً كبيراً، وثُلْمَةً في الإسلام لا تسد، كما قال الحسن البصري رحمه الله: «موتُ العالم ثُلْمَةٌ في الإسلام، لا يسدّها شيءٌ ما اطَّرد الليل والنهار».

ولقد بليت أمةُ الإسلام في الأشهر الأخيرة بفقد عددٍ من علمائها الأخيار، ومصلحيها الأبرار، ممن لهم في العلم قدم راسخة، ومكانةٌ عالية، وجد واجتهاد، وبذلٌ وعطاء، عَبْر عُمُر مديد، وحياة حافلة بالجود والسخاء.

وآخر ما وقع من ذلك، ما كان في عصر يوم السبت الموافق للثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة وألف للهجرة، حيث فقدت الأمةُ عالِمَها الجليل، ومحدِّثَها الشهير: العلّامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

ذلكم العالم الجليل، الذي نذر حياتَه، وبذل أوقاتَه في سبيل خدمة حديث رسول الله ﷺ، والنصح لسنته؛ وتأتي هذه الفاجعة الكبيرة بفقده، بعد قرابة خمسة أشهر من فجيعة العالم الإسلامي بفقد شيخ الإسلام والمسلمين: سماحة العلّامة المجدِّد، الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله، وغفر له، وأسكنه فسيح جناته ـ.

ولقد قال العلّامة الألباني رحمه الله عندما بلغه نبأ وفاة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز: «إنَّ لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلُّ شيءٍ عنده بأجلٍ مسمى، ونسأل اللهَ عز وجل أن يجعله في العلّيين مع الأنبياء والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، ونسأله عز وجل أن يخلف من بعده مَنْ هو خيرٌ منه في خدمة الإسلام والمسلمين، والله المستعان ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهمّ

أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها» وتألم كثيراً لفقده، وحزن لفراقه، ودمعت من ذلك عيناه.

وكانت تجمعه به ـ رحمهما الله ـ محبَّةٌ عميقة، وصلةٌ وثيقة، ورحِمٌ مباركٌ ألا وهو رحِمُ العلم، إذ رُوي عن السلف (أنَّ العِلْمَ رَحِمٌ بين أهله) وكان كلٌّ واحدٍ منهم كثيرَ الثناء على الآخر والإشادة بمناقبه وفضائله، قال الشيخ العلّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الشيخ ـ أي الألباني ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ معروفٌ لدينا بحسن العقيدة والسيرة ومواصلة الدعوة إلى الله سبحانه، مع ما يبذله من الجهود المشكورة في العناية بالحديث الشريف وبيانه الحديث الصحيح من الضعيف والموضوع، وما كتبه في ذلك من الكتابات الواسعة، كلُّه عملٌ مشكور ونافعٌ للمسلمين، نسأل الله أنْ يضاعف مثوبتَه، ويعينه على مواصلة السير في هذا السبيل الطيِّب، وأن يكلِّل جهوده بالتوفيق والنجاح» ا.هـ.

وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتمتّع بصفاتٍ جليلة وخصال كريمة، منها غيرته على السنَّة النبوية، وحرصه على نشرها، وتمسكه الشديد بها، وعنايته بالتوحيد وتعليمه ونشره، وتحذيره من الشرك والبدع، في همةٍ عالية ونشاط متواصل وعطاء مستمر.

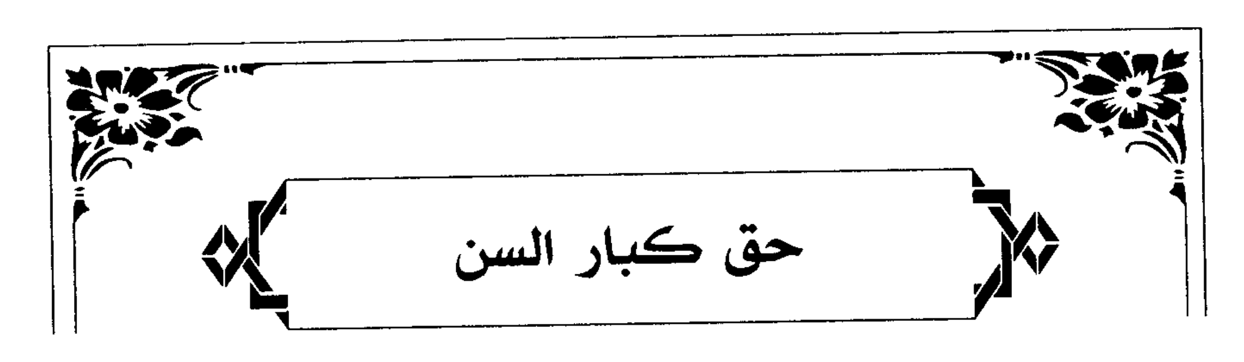
وقد كان له رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤلفاتٌ عظيمةٌ وتحقيقاتٌ نافعةٌ، تربو على المائة؛ كانت ولا تزال محلَّ اهتمام طلّاب العلم وموضع عنايتهم، يكثرون من الرجوع إليها والإفادة منها، وكانت جهوده رَحِمَهُ ٱللَّهُ محلَّ تقدير الجميع؛ ولذا قرَّرت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية منحه الجائزة عام ١٤١٩هـ، وموضوعها «الجهود العلمية التي عُنيت بالحديث النبوي تحقيقاً وتخريجاً ودراسةً» تقديراً لجهوده القيِّمة في خدمة الحديث النبويِّ الشريف.

ثم إنَّ من محبته رَحِمَهُ اللهُ للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ووفائه لها، وتقديره للجهود التي تُبذَل فيها في سبيل نشر العقيدة، وبيان السنَّة؛ أنْ أوصى رَحِمَهُ اللهُ بأن تودع مكتبته بما فيها من مخطوطات ومطبوعات في مكتبة الجامعة الإسلامية، فنسأل الله أن يتقبل منه ذلك، وأن يجزيه خير الجزاء.

هذا ولقد كان لنبأ فقده رَحِمَهُ اللهُ وقعٌ كبير على قلوب العلماء وطلاب العلم وعلى المسلمين بعامة في أنحاء المعمورة، وما من ريب أنَّ فقدَه رَحِمَهُ اللهُ يُعَدُّ مصيبةً عظيمةً وحادثاً جَلَلاً، تحزن له القلوب وتتألم منه النفوس، والحمد لله على قضائه وقدره، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ونسأل اللهَ الكريم أن يتغمد الفقيدَ برحمته، ويسكنه فسيح جناته، ويجزيه عن المسلمين خير الجزاء، كما نسأله سبحانه أنْ يأجرَ المسلمين في مصيبتهم هذه وأن يخلفهم خيراً، إنَّه جوَّادٌ كريم، رؤوف رحيم.





حق كبار السن

إن الدين الإسلامي الحنيف أتى ليكمِّلَ الناس في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إنما بُعثتُ لأتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ**»[1].

وإن من الأخلاق النبيلة والخصال الكريمة التي دعا إليها الإسلام، مراعاةَ قدر كبار السن ومعرفةَ حقهم وحفظ واجبهم. فالإسلام أمر بإكرام المسن وتوقيره واحترامه وتقديره، ولا سيما عندما يصاحب كبر سنه ضعفه العام وحاجته إلى العناية البدنية والاجتماعية والنفسية؛ ولقد تكاثرت النصوص وتضافرت الأدلة في بيان تفضيل الكبير، وتوقيره، والحثِّ على القيام بحقه، وتقديره.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا، فليس منا**»[2].

وفي هذا وعيد لمن يهمل حق الكبير ويضيع الواجب نحوه، بأنه ليس على هدي النبي صلى الله عليه وسلم وغيرُ ملازم لطريقته.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه**

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٠٧).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤١٣٤).

ولا الجافي عنه، وإكرامَ ذي السلطان المقسط»[(١)].

وعن أبي يحيى الأنصاري رضي الله عنه قال: انطلق عبد الله بن سهل ومحيصة بن مسعود إلى خيبر وهي يومئذ صلح، فتفرقا فأتى محيصة إلى عبد الله بن سهل وهو يتشحط في دمه قتيلاً فدفنه ثم قدم المدينة، فانطلق عبد الرحمٰن بن سهل ومحيصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ، فذهب عبد الرحمٰن يتكلم فقال: «**كبر كبر**» وهو أحدث القوم، فسكت فتكلما فقال: «**أتحلفون وتستحقون قاتلكم؟**» وذكر تمام الحديث[(٢)].

وقوله ﷺ: «**كبر كبر**» معناه: يتكلم الأكبر.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**أراني في المنام أتسوَّكُ بسواكٍ، فجَذَبَنِي رجلان، أحدُهما أكبرُ من الآخر، فناولتُ السِّواكَ الأصغرَ منهما، فقيل لي: كبِّر، فدفعتُه إلى الأكبرِ**»[(٣)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يستَنُّ، فأعطى أكبرَ القومِ، وقال: «**إن جبريلَ ﷺ أمرني أن أكبِّرَ**»[(٤)]. إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة والأدلة العديدة التي اشتملت عليها سنة النبي الكريم ﷺ، وهذه النصوص وما جاء في معناها تدعو المسلمين إلى احترام كبار السِّن من المسلمين، ومعرفة حق ذي الشيبة المسلم ولزوم الأدب معهم، وذلك باحترامهم وتوقيرهم ومعرفةِ قدرهم وحقوقهم ومراعاةِ كبر سنهم وأعمارهم، وملاحظة ضعفهم

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٤٣)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٥٣).

(٢) رواه البخاري (٣١٧٣)، ومسلم (١٦٦٩).

(٣) رواه البخاري (٢٤٦) معلَّقاً، ومسلم (٢٢٧١) موصولاً ـ واللفظ له ـ.

(٤) رواه أحمد (٢/١٣٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٥٥٥).

ووهن أبدانهم، وتقدير مشاعرهم وأحاسيسهم، وتقديمهم في الكلام والطعام والدخول ونحو ذلك من الآداب العظيمة والأخلاق الكريمة.

ويتأكد الاحترامُ والتقدير عندما يكون كبير السن أباً أو جداً أو خالاً أو قريباً أو جاراً، وذلك لحق القرابة والصلة والجار. وكما يدين المرء يدان، فمن راعى حقوق هؤلاء وحافظ على واجباتهم في شبابه وصحته ونشاطه، هيأ الله له في كبره من يرعى حقوقه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أكرم شابٌّ شيخاً لسنِّه، إلا قيَّضَ الله له من يُكرمه عند سنِّه**»[1]. وفي معناه ما رواه يحيى بن سعيد المدني قال: بلغنا أنه من أهان ذا شيبة، لم يمت حتى يبعث الله عليه من يهين شيبه إذا شاب.

إن كبار السن وذوي الأعمار المديدة يعيشون مرحلة إقبال على الآخرة وإحساس بدنوِّ الأجل أكثر من غيرهم، فالطاعة فيهم تزيد والخير فيهم يكثر والوقار عليهم يظهر. روى ابن أبي الدنيا قال: دخل سليمان بن عبد الملك المسجد فرأى شيخاً كبيراً فدعا به، فقال: يا شيخ أتحب الموت؟ قال: لا، قال: بم؟ قال: ذهب الشباب وشرُّه وجاء الكبَرُ وخيره، فإذا قمت قلت: بسم الله، وإذا قعدت قلت: الحمد لله فأنا أحب أن يبقى لي هذا. وعن عبد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه: أن أعرابياً قال: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: «**مَنْ طالَ عمُرُه، وحَسُنَ عملُهُ**»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٢٢)، وضعفه الألباني رحمه الله في «ضعيف سنن الترمذي» (٣٤٨).

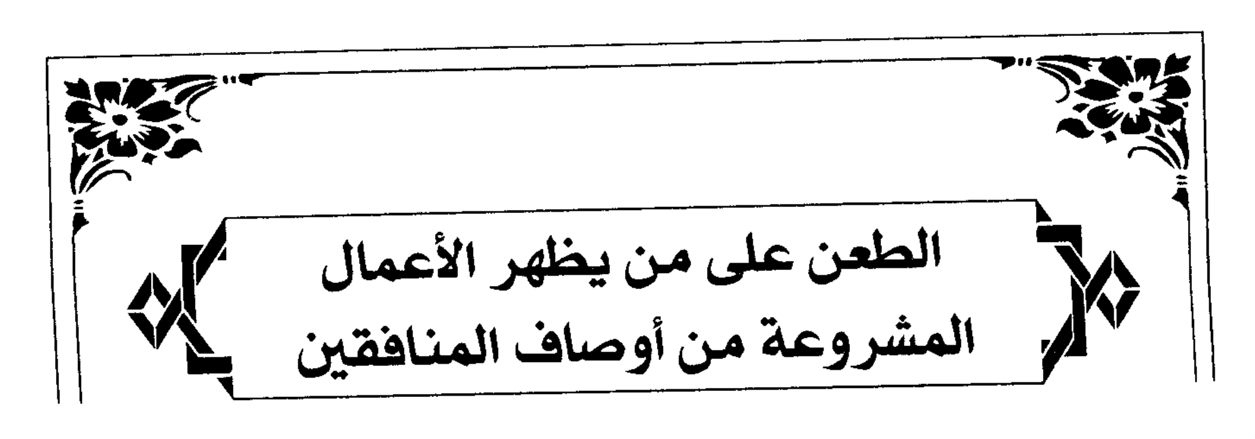
(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٩٨).

إن الواجب على الشباب أن يتقوا الله جل وعلا ويراقبوه بمراعاة حقوق هؤلاء الأمثال الأخيار والأفضال الأبرار، أهل الإحسان والطاعة والخير والعبادة، أهل الركوع والسجود والصيام والقيام، والتسبيح والتهليل والحمد والطاعة.

وإن من المؤسف حقاً أن تهدر حقوق هؤلاء في ظل طيش الشباب، وغمرتهم في السهو والغفلة؛ فلا للآباءِ يحترمون، ولا للكبار يقدرون ويوقرون، ولا للقيام بحقوق هؤلاء يقومون ويرعون، بل ولا للوقوف بين يدي الله يراقبون، لا سيما وأن بعض سفهاء الشباب قد يرتكبون تجاه هؤلاء اعتداءاتٍ مشينةً وتجاوزات عظيمة، تسفر عن قلة الحياء وذهاب الخلق والمروءة ومفارقة القيم والأخلاق. فهم في غمرتهم ساهون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون؛ ألا فليتَّقِ الله هؤلاء بمعرفة حقوق آبائهم وأكابرهم وحفظ أقدارهم ومراعاة واجباتهم، وإنا لنسأل الله أن يهدي شباب المسلمين وأن يردهم إلى الحق رداً.

ونسأله سبحانه أن يمتِّعَ كبار السن بالصحة والعافية، وأن يرزقهم صلاح الذرية وحسن العاقبة، وأن يختم لنا ولهم بالخير والإيمان.





الطعن على من يظهر الأعمال المشروعة من أوصاف المنافقين

استوقفتني كلمةٌ رائعةٌ نقلها الشيخ العلامة عبد الرحمٰن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه المستطاب «طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول» وهو كتابٌ فذٌّ جَمَعَ فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يزيد على الألف ما بين أصل وقاعدة وضابط وكلام جامع من كلام الشيخين الجليلين شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم، وهو بحق موسوعةٌ رائعةٌ لكثرة ما حواه من أصول وقواعد وضوابط في أنواع الفنون.

أقول: استوقفتني في هذا الكتاب كلمةٌ نقلها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الفتاوى المصرية لشيخ الإسلام ابن تيمية وهي قوله: «الطعن على من يظهر الأعمال المشروعة من أوصاف المنافقين، وفيه فتحُ الباب لأهل الشر والفساد».

وأخذت أجيل النظر في معاني هذه الكلمة ودلالاتها، وأتأمل في فوائدها وثمراتها. ووجدت أنها كلمةٌ عظيمةٌ يجدر بالمسلم أن يتأملها، وأن يقف على فوائدها ودلالاتها.

إنَّ من يظهر الأعمال المشروعة، ويسعى جاهداً في بذلها، ونفسُهُ سخيةٌ بها، حقه أن يُكرم ويوقر، وأن تُكِنَّ له القلوبُ المحبةَ والمودةَ، وأن يُدعى له بالخير لقاءَ جهوده وجزاء إحسانه ومقابل بذله وعطائه، أيّاً كانت أعمالُهُ التي يظهرها ما دامت أعمالاً مشروعةً؛ ومن ذلك الدعوةُ إلى الله، وتحفيظ القرآن، وبناء المساجد، وطباعة الكتب النافعة، وكفالة الأيتام، ومساعدة الفقراء، وإعانة المعسرين،

وقضاء الديون، ومساعدة المتزوجين؛ إلى غير ذلك من أعمال البر المشروعة. فكلٌّ من يقوم بشيء من هذه الأعمال المباركة، ويسعى في هذه المصالح النافعة حقه الإكرام وأن يحسن به الظن، إذ هو على ثَغرةٍ مباركةٍ وفي عملٍ نبيلٍ، وكيف يساء بأمثال هؤلاء الظن، أو تكال لهم الطعون، أو توجه إليهم التهم، أو يدخل في نواياهم ومقاصدهم؟! وقد ذم الله المنافقين بمثل هذا، قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩]. فقد جاءت هذه الآيةُ ضمن سياقٍ كريمٍ في سورة التوبة في بيان أوصاف المنافقين وقبائحهم ومخازيهم، وفي السورة آياتٌ كثيرةٌ، منها ما يبدأ بقوله: ﴿وَمِنۡهُم﴾، ومنها ما يبدأ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ثم تُذكر أوصافُ هؤلاء، وفي هذه الآية ذكر ﷻ من أوصافهم أنهم يلمزون المطوعين في الصدقات، ويلمزون كذلك الذين لا يجدون إلا جهدهم: أي أنهم يلمزون المكثر من الإنفاق في سبيل الله بأنَّ قصده بنفقته الرياءُ والسمعة والمفاخرة ونحو ذلك، ويلمزون المقل في النفقة لكونه لا يجد إلا القليل بقولهم: إنَّ الله غنيٌّ عن نفقته. فلم يسلم منهم مقلٌّ ولا مكثرٌ، بل لا يدَعون شيئاً من أمور الدين وأفعال الخير يرون لهم فيها مقالاً، إلا طعنوا وتكلموا بالبغي والعدوان والظلم والبهتان. نسأل الله العافية والسلامة.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «وهذا أيضاً من صفات المنافقين، لا يسلم أحدٌ من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم؛ إن جاء أحدٌ منهم بمالٍ جزيلٍ قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيءٍ يسيرٍ قالوا: إن الله لغنيٌ عن صدقة هذا. كما روى البخاري: عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نُحَامِلُ على ظهورنا، فجاء رجلٌ بشيءٍ كثيرٍ فقالوا: مرائي، وجاء

رجلٌ فتصدق بصاع، فقالوا: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية[1]. وقد رواه مسلم أيضاً. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية، قال: جاء عبد الرحمٰن بن عوف بأربعين أوقيةٍ من ذهبٍ إلى رسول الله ﷺ، وجاء رجلٌ من الأنصار بصاعٍ من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمٰن بما جاء به إلا رياءً. وقالوا: إنَّ الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع. وكذا روي عن مجاهدٍ وغيرِ واحدٍ.

وروى الحافظ أبو بكر البزار: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**تصدقوا، فإني أريد أن أبعث بعثاً**» قال: فجاء عبد الرحمٰن بن عوف، فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي، وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت**» وبات رجل من الأنصار، فأصاب صاعين من تمر، فقال: يا رسول الله، أصبتُ صاعين من تمر: صاع أقرضه لربي، وصاع لعيالي، قال: فلمزه المنافقون، وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابنُ عوف إلا رياءً، وقالوا: ألم يكن اللهُ ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ الآية[2]» ا.هـ مختصراً.

وقد جمع هؤلاء المنافقون بهذا الطعن واللمز بين جملةٍ من الخصال الذميمة والخلال المشينة، وفي هذا يقول الشيخ ابن سعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير:

---

(١) رواه البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨).

(٢) رواه البزار «كشف الأستار» (٢٢١٦)، وإسناده ليِّن من أجل عمر بن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف الزهري، وهو بمعنى الذي قبله.

منها: تتبُّعهم لأحوال المؤمنين وحرصُهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم كفراً بالله تعالى وبغضاً للدين.

ومنها: أنَّ اللمز محرمٌ، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة؛ فأقبح وأقبح.

ومنها: أنَّ من أطاع الله وتطوع بخصلةٍ من خصال الخير فإنَّ الذي ينبغي إعانته وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.

ومنها: أنَّ حكمهم على من أنفق مالاً كثيراً بأنه مراءٍ غلطٌ فاحشٌ، وحكمٌ على الغيب، ورجمٌ بالظن، وأيُّ شر أكبرُ من هذا؟.

ومنها: أنَّ قولهم لصاحب الصدقة القليلة: الله غنيٌّ عن صدقة هذا! كلامٌ مقصوده باطلٌ؛ فإنَّ الله غنيٌّ عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغنيٌّ عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه؛ فالله وإن كان غنياً عنه؛ فهم فقراءُ إليه؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧]؛ وفي هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهرٌ بيِّنٌ، ولهذا كان جزاؤهم أن يسخر الله منهم، ولهم عذابٌ أليمٌ» ا.هـ.

ومن خلال ما تقدم يعلم أنَّ الطعن فيمن يظهر الأعمال المشروعة ووصفَهُ بالرياء أو التشكيكَ في نيته إنَّما هو من أعمال المنافقين، كما هو واضحٌ في الآية المتقدمة وفي الأحاديث المبينة لها، وهو من قبيل ما جاء في المثل: «رمتني بدائها وانسلت»، ثم هو كذلك من أعمال المشركين، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ قائمٌ يصلي عند الكعبة، وجمعُ قريشٍ في مجالسِهم، إذ قال قائل منهم: ألا

تنظرون إلى هذا المرائي؟ الحديث[1]. فرمى هؤلاء المشركون سيدَ ولد آدم وإمامَ المخلصين وقدوةَ الموحِّدين بالرياء، لما رأوه متعبداً لله ﷻ.

ويعلم كذلك أنَّ النهيَ عن الأعمال المشروعة والتخذيلَ منها بحجة البعد عن الرياء والسلامة منه مسلكٌ غيرُ صحيحٍ، بل يترتب عليه أضرارٌ كثيرةٌ وأخطارٌ عديدةٌ لا يُعلم مداها، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا المقام كلامٌ عظيمُ النفع كبيرُ الفائدة أنقله بحروفه رجاءَ أن ينفع الله به كلَّ من يطلع عليه، قال رحمه الله: «ومن نهى عن أمرٍ مشروعٍ بمجرد زعمه أنَّ ذلك رياءٌ، فنهيه مردودٌ عليه من وجوهٍ.

أحدها: أنَّ الأعمالَ المشروعةَ لا يُنهى عنها خوفاً من الرياء بل يُؤمر بها وبالإخلاص فيها، ونحن إذا رأينا من يفعلها أقررناه، وإن جزمنا أنه يفعلها رياءً، فالمنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]، فهؤلاء كان النبي ﷺ والمسلمون يُقِرُّونهم على ما يظهرونه من الدين، وإن كانوا مرائين، ولا ينهونهم عن الظاهر؛ لأنَّ الفسادَ في ترك إظهار المشروع أعظمُ من الفساد في إظهاره رياءً، كما أنَّ فساد ترك إظهار الإيمان والصلوات أعظمُ من الفساد في إظهار ذلك رياءً، ولأنَّ الإنكارَ إنَّما يقع على الفساد في إظهار ذلك رئاء الناس.

الثاني: لأن الإنكار إنما يقع على ما أنكرته الشريعة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إني لم أُومَرْ أن أُنَقِّبَ عن قلوبِ الناسِ، ولا أن أشقَّ بطونَهُم**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٠)، بهذا السِّياق. ورواه مسلم (١٧٩٤)، لكن سياقه مختلف.

(٢) رواه مسلم [١٤٤ ـ (١٠٦٤)].

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من أظهر لنا خيراً أحببناه وواليناه عليه، وإن كانت سريرته بخلاف ذلك، ومن أظهر لنا شراً أبغضناه عليه وإن زعم أن سريرته صالحة[1].

الثالث: أن تسويغ مثل هذا يفضي إلى أن أهل الشرك والفساد ينكرون على أهل الخير والدين إذا رأوا من يظهر أمراً مشروعاً مسنوناً، قالوا: هذا مراء، فيترك أهل الصدق والإخلاص إظهار الأمور المشروعة حذراً من لمزهم وذمهم، فيتعطل الخير، ويبقى لأهل الشرك شوكة يظهرون الشر، ولا أحد ينكر عليهم وهذا من أعظم المفاسد.

الرابع: أن مثل هذا من شعائر المنافقين، وهو يطعن على من يظهر الأعمال المشروعة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [التوبة: ٧٩]. فإن النبي ﷺ لما حض على الإنفاق عام تبوك جاء بعض الصحابة بصرة كادت يده تعجز من حملها، فقالوا: هذا مراء، وجاء بعضهم بصاع، فقالوا: لقد كان الله غنياً عن صاع فلان، فلمزوا هذا وهذا، فأنزل الله ذلك[2]، وصار عبرة فيمن يلمز المؤمنين المطيعين لله ورسوله ﷺ، والله أعلم»[3].

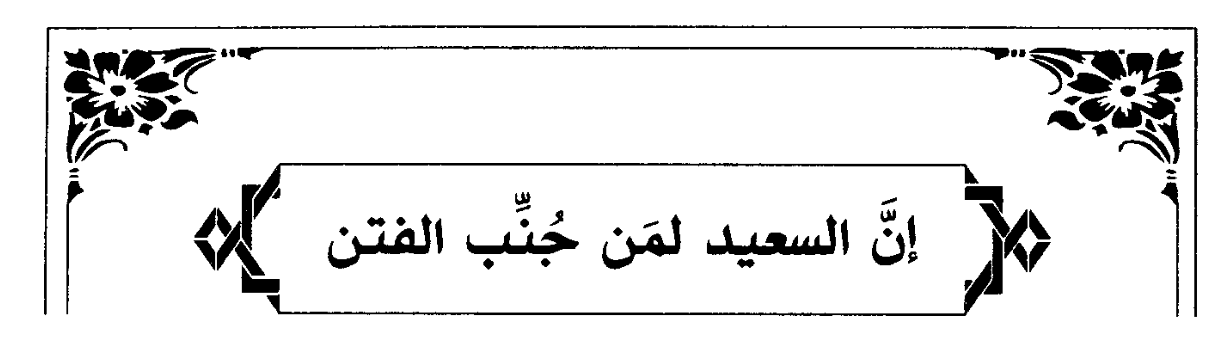
هذا ونسأل الله أن يبارك في كل من قام بعمل مشروع قل أو جل صغر أو كبر، وأن يزيدهم من الخير، وأن يتقبل منهم صالح أعمالهم، وأن يعيذهم من شر كل ذي شر، ومن شر كل دابة هو آخذ بناصيتها، إنه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) انظر البخاري (٢٦٤١).

(٢) رواه البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨) عن أبي مسعود رضي الله عنه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ١٧٤ ـ ١٧٦).



إنَّ السعيد لمَن جُنِّب الفتن

عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ السعيد لَمَن جُنِّب الفتن**»[1].

وها هنا يتساءل الكثير من الغيورين والناصحين مِمَّن يريدون لأنفسهم الخير والسعادة، ولأمَّتهم أمَّة الإسلام العلوَّ والرِّفعة: بِمَ تُنال هذه السعادة؟ وكيف يظفر بهذا المقصد الجليل؟ وكيف تُتَّقى الفتن؟ وكيف يجنَّبها المرء المسلم ويسلم من أوضارها وشرِّها وشررها وأخطارها؟

ذلك لأنَّ كلَّ مسلم ناصح غيور لا يريد لنفسه الفتنة ولا لأمَّته؛ لِما قام في قلبه من النصيحة لنفسه ولعباد الله المؤمنين، مُمتثلاً في ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «**الدين النصيحة**»، قالوا: لِمَن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامتهم**»[2].

ومقتضى النصيحة للنفس والغير أن يحذر العبد من الفتن، وأن يسعى جاهداً في البُعد عنها والتخلص منها وعدم الوقوع فيها، والتعوذ بالله من شرِّها ما ظهر منها وما بطن.

وفي هذه الوقفة أنبِّه على نقاط مهمَّة وأُسُس عظيمة وضوابط قويمة، يكون للمسلم بمراعاتها والتزامها التخلص من الفتن ـ بإذن الله

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٦٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٥٨٥).

(٢) رواه مسلم (٥٥)، من حديث تميم الداريِّ رضي الله عنه.

تبارك وتعالى ـ وهي ضوابط عظيمة مستقاة من كتاب الله العزيز وسنَّة النَّبيِّ الكريم ﷺ.

١ ـ وإنَّ أهمَّ ما تُتَّقى به الفتن ويتجنَّب به شرُّها وضررُها تقوى الله جلَّ وعلا، وملازمةُ تقواه في السرِّ والعلن والغيب والشهادة، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، أي: يجعل له مخرجاً من كلِّ فتنة وبليَّة وشرٍّ في الدنيا والآخرة، ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، والعاقبة دائماً لأهل التقوى.

ولَمَّا وقعت الفتنة زمن التابعين أتى بعضُ الناصحين إلى طلق بن حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقالوا له: قد وقعت الفتنة فكيف نتَّقيها؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اتَّقوها بالتقوى. قالوا: أجمل لنا التقوى؟ قال: تقوى الله عملٌ بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عقاب الله.

وبهذا يُعلم أنَّ تقوى الله ليست كلمةً يقولها المرء بلسانه أو دعوى يدَّعيها، وإنَّما تقوى الله ﷻ جِدٌّ واجتهاد، ونصحٌ للنفس بطاعة الله والتقرُّب إليه بما يرضيه، ولا سيما فعل الفرائض والواجبات، والبُعد عن المعاصي والمنكرات، فمَن كان هذا شأنُه نال ـ بإذن الله ـ العاقبةَ الحميدة والنهاية الرشيدة.

٢ ـ ومن الضوابط المهمَّة لاجتناب الفتن لزومُ الكتاب والسنَّة والاعتصامُ بهما، فإنَّ الاعتصامَ بالكتاب والسنَّة سبيلُ العزِّ والنجاة والفلاح في الدنيا والآخرة، وقد قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام دار الهجرة: «السنَّة سفينة نوح، فمَن ركبها نجا ومَن تركها هلك وغرق». ومَن أمَّر السنَّة على نفسه نطق بالحكمة وسلم من الفتنة، ونال خيري الدنيا والآخرة.

وقد ثبت في حديث العرباض بن سارية أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّه مَن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي، تَمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ محدثة بدعة وكلَّ بدعة ضلالة**»[1].

فالنجاةُ عند الاختلاف والسلامة من الفتنة إنَّما تكون بالتمسُّك بسنَّة النَّبيِّ الكريم ﷺ، والبُعد عن الأهواء والبدع، وأن يحكِّم المرءُ السُّنَّة على نفسه فيما يأتي ويذَر في حركاته وسكناته وقيامه وقعوده وجميع شؤونه، ومَن كان هذا شأنُه فإنَّه يُعصَم ويُوقَى ـ بإذن الله ـ من كلِّ شرٍّ وبلاء وفتنة. وأمَّا من يُرخي لنفسه العنان ويُطلق لهواه الزمام، فإنَّه يَجُرُّ على نفسه الشرَّ وعلى غيره من عباد الله.

٣ ـ ومن الضوابط العظيمة لاتِّقاء الفتن الرِّفقُ والأناة وعدمُ العجلة والتأمُّلُ في عواقب الأمور، فإنَّ العجلةَ لا تأتي بخير، والأناةُ فيها الخير والبركة؛ ومَن كان عجولاً في أموره مندفعاً في تصرُّفاته، فإنَّه لا يأمن على نفسه من الزلل والوقوع في الانحراف والخطل. وأمَّا من كان رفيقاً متأنِّياً بعيداً عن العجلة والتهوُّر والاندفاع، متأمِّلاً وناظراً في عواقب الأمور، فإنَّه ـ بإذن الله ـ يصل إلى العواقب الحميدة التي يسعد بها في الدنيا والآخرة.

وقد جاء عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: «إنَّها ستكون أمور مشتبهات، فعليكم بالتُّؤَدَة، فإنَّك أن تكون تابعاً في الخير خيرٌ من أن تكون رأساً في الشرِّ».

إنَّ من يندفع في معالجة الأمور، ويبتعد عن سبيل الأناة والتُّؤدة

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٥١).

يفتح على نفسه وعلى غيره من عباد الله باباً من الشرِّ والبلاء، يتحمَّل وزره ويبوء بإثمه ويجني عاقبته الوخيمة. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ من الناس مفاتيحَ للخير مغاليقَ للشرِّ، وإن من الناس مفاتيحَ للشرِّ مغاليقَ للخير، فطوبى لِمَن جعل الله مفاتيحَ الخير على يديه، وويلٌ لِمَن جعل الله مفاتيحَ الشرِّ على يديه»**[1].

فالعاقل يكون على حذر، ناظراً في عواقب الأمور، حليماً رفيقاً متأنِّياً، بعيداً عن الاندفاع والعجلة والتسرُّع، فإنَّ العجلةَ والتسرُّعَ والاندفاعَ لا تجرُّ على صاحبها إلَّا العواقب الوخيمة والأضرار الأليمة والنتائج السيِّئة.

٤ ـ وإنَّ من الضوابط المهمة لزومَ جماعة المسلمين، والبعدَ عن التفرُّق والاختلاف، فإن الفرقةَ شرٌّ والجماعةَ رحمة، الجماعةُ يحصلُ بها قوة لحمة المسلمين وشدَّة ارتباطهم وقوة هيبتهم وتحقق وحدتهم، ويحصل بها التعاون بينهم على البرِّ والتقوى، وعلى ما تكون به سعادتهم في الدنيا والآخرة. وأمَّا الخلاف فإنَّه يَجرُّ عليهم شروراً كثيرة، وأضراراً عديدة وبلاءً لا يحمدون عاقبته؛ ولهذا جاء عن النَّبيِّ ﷺ في غير ما حديث الوصية بلزوم الجماعة والتحذير من الفرقة، قال ﷺ: **«الجماعة رحمة، والفُرقة عذاب»**[2]، وقال ﷺ: **«عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة»**[3]، وقال ﷺ: **«يد الله على**

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٩٤).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣١٠٩).

(٣) رواه الترمذي (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٥٨).

الجماعة»[1]، وقال ﷺ: **«لا تختلفوا، فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»**[2].

٥ ـ ومن الضوابط العظيمة التي يلزم مراعاتها لاتِّقاء الفتن واجتناب شرِّها الأخذُ عن العلماء الراسخين والأئمَّة المحقِّقين، وترك الأخذ عن الأصاغر من الناشئين في طلب العلم، المقلِّين في التحصيل منه. يقول ﷺ: **«البركة مع أكابركم»**[3].

فالبركة مع الأكابر الذين رسخت أقدامهم في العلم وطالت مدَّتهم في تحصيله، وأصبح لهم مكانة في الأمَّة بما آتاهم الله من العلم والحكمة والرزانة والأناة والنظر في عواقب الأمور، فعن هؤلاء أُمرنا أن نأخذ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣]، فمَن كان معوِّلاً على هؤلاء أمن الفتنة وحمد العاقبة.

٦ ـ ومن الضوابط المهمَّة لتجنُّب الفتن حسن الصلة بالله ودعاؤه سبحانه، فإنَّ الدعاءَ مفتاحُ كلِّ خير في الدنيا والآخرة، ولا سيما سؤال الله تبارك وتعالى أن يجنِّب المسلمين الفتنَ ما ظهر منها وما بطن؛ والتعوذ به سبحانه من مضلَّات الفتن، فإنَّ مَن استعاذ بالله أعاذه، ومن سأل الله أعطاه، فإنَّه سبحانه لا يخيب عبداً دعاه،

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٨١) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «ظلال الجنة» (١/ ٤٠).

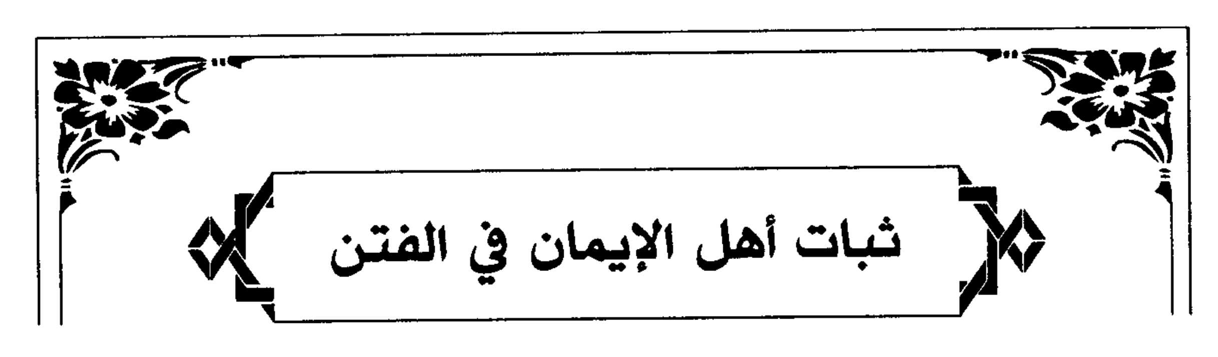
(٢) رواه البخاري (٢٤١٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن حبان (٥٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٧٧٨).

ولا يردُّ عبداً ناداه، وهو القائل سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

وإنَّا لنسأل الله الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يُجنِّب المسلمين الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يحفظ على المسلمين أمنَهم وإيمانهم، وأن يقيَهم الشرور كلَّها، وأن يحمِّدَهم العواقب، وأن يرزقهم المآلات الحميدة، والنهايات الرشيدة، إنَّه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.





ثبات أهل الإيمان في الفتن

إنَّ الفتنَ الملمَّة، والأحداث المدلهمة إذا حلَّت بالناس ونزلت بهم أظهرت حقائقهم، وكشفت معادنهم، وميّزت طيّبَهم من خبيثهم، وحسنهم من سيِّئهم، ولله الحكمة البالغة في ذلك، ليميز الخبيث من الطيّب، وهذه من حكمة الله في ابتلائه خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

والحياة كلُّها ميدان ابتلاء ودار امتحان، والناس فيها ليسوا سواءً، فمنهم من يعبد الله على حرف، فإنْ أصابه خير اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، وذلك الخسران المبين. ومنهم من يعبد الله على علم وبصيرة وإيمان راسخ وعقيدة صحيحة، فإن أصابته فتنة صبر فكان خيراً له، وإن أصابته نعمةٌ شكر فكان خيراً له، وهذا لا يكون لأحد إلَّا للمؤمن، فأمره كلُّه خير، وأحواله كلُّها حسنة طيِّبة، وعواقبُه كلُّها حميدة، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

إنَّ للإيمان الصحيح والعقيدة السليمة أثراً قويّاً ودوراً بارزاً في التغلُّب على الأحداث والملمَّات، والمصائب والمِحن، والنوازل والفتن، ذلك أنَّ صاحب الإيمان الصحيح والعقيدة السليمة تعلَّم من دينه أموراً مهمَّة، ودروساً عظيمة تُعينه على الثبات في الأحوال، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله. ومن أهمِّ هذه الأمور ما يلي:

أولاً: أنَّه يعلم علم يقين لا يخالطه شك ولا يداخله ريب أنَّ خالقَ هذا الكون وموجده ومدبِّرَ شؤونه هو الله وحده لا شريك له،

وأنَّه وحدَه المتصرِّفُ فيه، وأنَّه لا يكون فيه إلَّا ما شاء تبارك وتعالى، فأزمَّة الأمور كلّها بيده، ومقاليد السمٰوات والأرض كلُّها له، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فللّه ملك السمٰوات والأرض وما فيهنَّ وهو على كلِّ شيء قدير.

ثانياً: أنَّ الله جلَّ وعلا تكفَّل بنصر أهل الإيمان، وحفظ أهل الدِّين، ووعد بذلك ووعده الحق، وأخبر بذلك في كتابه، وكلامه صدق وحق، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾﴾ [محمد: ٧ - ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [الروم: ٦].

ثالثاً: أنَّ الله وعد في كتابه بخذلان الكافرين، وإبادتهم، وقصم ظهورهم، وقطع دابرهم، وجعْلهم عبرة للمعتبرين، وعِظةً للمتَّعِظين، كما قال تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ [التوبة: ٩٨]. وشواهد ذلك في التاريخ كثيرة لا تُحصى، وعديدة لا تُستقصى، فهو سبحانه يملي للظالم ولا يهمل، وإذا أخذه أخذه بغتة، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

رابعاً: أنَّ المؤمن يعلم أنَّه لن تموتَ نفسٌ حتى تستوفيَ أجلها وتستتمَّ رزقها، فلن يموت أحدٌ قبل منيَّته ولا بعدها ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]. فالآجال محدَّدة، والأعمار مؤقَّتة، ولكلِّ أجل كتاب، ولكلِّ نفس ميعاد، ولا يحول بين المرء وبين أمر الله شيء؛ كما قال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: ٧٨]، فلا القصور

المنيعة تحمي، ولا السراديب الخفية تقي، ولا البروج المشيّدة تمنع.

خامساً: أنَّ المؤمن لشدَّة ثباته وقوة يقينه لا تزعزعه الأراجيف، ولا تخوِّفه الدعايات؛ بل إنَّه إذا خُوِّف بالذين من دون الله زاد إيماناً وثقة بالله وتوكّلاً واعتماداً عليه، كمثل الصحابة رضي الله عنهم ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»(١). ومعنى حسبنا الله، أي: كافينا.

سادساً: أنَّ صاحب الإيمان الصحيح لا يعتمد في أموره كلِّها إلَّا على الله وحده، ولا يفوِّض أموره إلَّا له، ولا يتوكَّل إلَّا عليه، ولا يستعين إلَّا به. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]؛ ولهذا كان من دعائه ﷺ ـ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنَّه كان يقول: «**اللَّهمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكَّلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللَّهمَّ أعوذ بعزَّتك لا إله إلَّا أنت أن تضلَّني أنت الحيُّ الذي لا يموت، والإنس والجنُّ يموتون**»(٢). وضرب في السيرة العطرة أروع الأمثلة وأبلغها في الثقة

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٥٦٣).

(٢) رواه البخاري رقم (٧٣٨٣)، ومسلم رقم (٢٧١٧) واللفظ له.

بالله وشدَّة الاعتماد عليه، ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما ثبت في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أنَّه غزا مع النبيِّ ﷺ فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العِضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرَّق الناس يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلَّق بها سيفه، ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي فقال: «**إنَّ هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صلتاً، قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله**» ـ ثلاثاً ـ ولم يعاقبه وجلس[1].

فتأمَّل هذا الثبات العظيم والثقة الكاملة بالله تعالى، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

سابعاً: أنَّ المؤمن يعلم أنَّ التوكّل الحقيقي لا يتمُّ إلَّا بأمرين اثنين لا بدَّ منهما:

الأول: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه، كما قال ابن القيم رحمه الله، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشوش الأسباب ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبسه السكون إلى مسبِّبها وهو الله.

وعلامة هذا: أنَّه لا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطربُ قلبُه ويخفق عند إدبار ما يحب منها وإقبال ما يكره؛ لأنَّ اعتمادَه على الله وسكونه إليه واستناده إليه.

والثاني: إثبات الأسباب والقيام بها، وقد كان سيّد المتوكِّلين وإمامُهم وحاملُ لوائهم محمدٌ ﷺ يقوم بفعل الأسباب وما أخلَّ بشيء منها، فقد ظاهر بين درعين يوم أُحد، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدلُّه على الهجرة، وكان يدَّخر القوت لأهله، وكان إذا سافر في

---

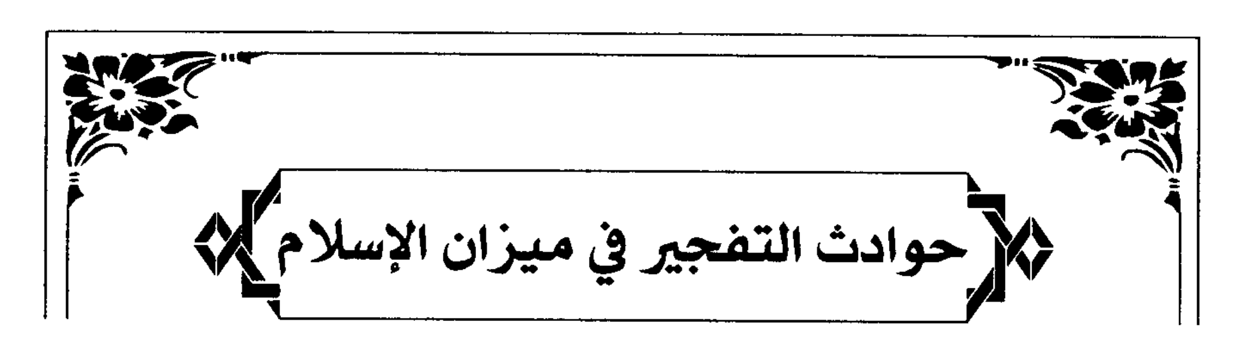
(١) رواه البخاري رقم (٢٩١٣)، ومسلم رقم (٨٤٣).

جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد معه، وجميع أصحابه كانوا كذلك، فهم أولو التوكّل حقّاً.

فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكُّل، ومن اعتمد على الأسباب لم يكن من أهل التوكّل، والأمر كما قال بعض أهل العلم: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكليَّة قدح في الشرع، وإنَّما التوكُّل والرجاء معنى يتألَّف من موجب التوحيد والعقل والشرع».

ثامناً: ثمَّ إنَّ المؤمن في الأمور الملمَّات والأحوال المدلهمّات يجد من قلبه إقبالاً شديداً على الله، وانكساراً بين يديه وخضوعاً له، فتراه مقبلاً على الله بالدعاء والسؤال والرجاء أن يجنب المسلمين الفتن ويخلصهم من المِحن، والله تبارك وتعالى قريب من عباده يسمع نداءهم، ويجيب دعاءَهم، ويغيث ملهوفهم، ويجبر كسيرهم، ويكشف مصيبتهم ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، لا أحد غيره تعالى، فمن سأله بصدق وإخلاص وعزيمة ورجاء أجاب دعاءه، وحقَّق رجاءه، فهو القريب المجيب سبحانه. ولربَّما انكشف ما يحلُّ بالمسلمين من بلاء وما ينزل بهم من مِحن بدعوة صالحة من رجل صالح في لحظة انكسار وساعة إجابة، فالدعاء أمره عظيم وشأنه جليل.

والله المسؤول وحده أن يجنِّبنا والمسلمين الفتن ما ظهر منها وما بطن، فلا إلٰه إلَّا الله وحده، نصر عبده وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. وصلى الله وسلَّم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



حوادث التفجير في ميزان الإسلام

إنَّ الحدَثَ الأليم والتفجير المدمِّر الذي حدث في مدينة الرياض ليلة الثلاثاء الموافق ١٢/ ٣/ ١٤٢٤، والذي راح ضحيَّته عددٌ من الأنفس المعصومة، وتلف عددٌ من الأموال المحرَّمة، يُعدُّ عملاً إجراميّاً، ونوعاً من البغي والعدوان، وضرباً من الفساد في الأرض، وأمراً مخالفاً للدِّين الإسلامي الحنيف في غايته الرشيدة وأحكامه السديدة وآدابه الحميدة.

وفيما يلي عرضٌ لجانب من أدلَّة الشريعة الدَّالَّة على فساد هذا العمل وعظَم هذا الجُرم، وبيان حال هذه الجريمة وحكمها في ميزان الإسلام.

١ ـ في الإسلام أمرٌ بالعدل والإحسان والرحمة، ونهي عن المنكر والبغي، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠]، وهذا العمل الإجرامي لا عدل فيه ولا إحسان ولا رحمة، بل هو منكر من الفعل وبغيٌ في العمل.

٢ ـ وفي الإسلام تحريم للعدوان ونهي عن الظلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظلمَ على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً، فلا تظالَموا**»[1] وهذا العمل قائمٌ على العدوان، مبنيٌّ على الظلم.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

٣ ـ وفي الإسلام تحريمٌ للفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١]، وهذا العمل نوعٌ من الفساد في الأرض، بل هو من أشدِّ ذلك وأنكاه.

٤ ـ ومن قواعد الإسلام العظيمة «دفع الضرر»، ومن شواهد ذلك في السنَّة قول النبي ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»[(١)] روي عن غير واحد من الصحابة مرفوعاً. وعن أبي صرمة صاحب النَّبيِّ ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**من ضارَّ أضرَّ الله به، ومن شاقَّ شاقَّ الله عليه**»[(٢)]؛ فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل، وكما يدين المرء يُدان، فلا يحلُّ لمسلم أن يضارَّ مسلماً لا في قول ولا فعل، وفعلة هؤلاء قائمة على أعظم الضرر وأفظع الإضرار.

٥ ـ ومن قواعد الإسلام العظيمة جلب المصالح ودرء المفاسد، وعمل هؤلاء لا مصلحة فيه ولا منفعة، ومفاسدُه لا حصر لها.

٦ ـ وفي الإسلام تحريم لقتل النفس «الانتحار»، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء: ٢٩ ـ ٣٠]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن تردَّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنَّم يتردَّى فيها خالداً مخلَّداً فيها أبداً، ومن تحسَّى سُمَّا فقتل نفسَه فسُمُّه في يده يتحسَّاه في**

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٤١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني رحمه الله بطرقه وشواهده في «الصحيحة» (٢٥٠).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٣٥)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٩١).

نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً، ومَن قتل نفسَه بحديدة فحديدتُه في يده يتوجَّأ بها في بطنه في نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً»[1]، وهؤلاء قتلوا أنفسهم في هذه الجريمة النَّكراء.

٧ ـ وفي الإسلام تحريم لقتل الأنفس المسلمة المعصومة بغير حقٍّ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، وقال في أوصاف المؤمنين عبادِ الرحمٰن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: قال: «**لا يحلُّ دمُ امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلَّا الله وأنِّي رسول الله إلَّا بإحدى ثلاث: الثيِّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[2]. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «**لزوال الدنيا أهونُ على الله مِن قتل رجل مسلم**»[3]، وكم من مسلم قُتل في هذه الجريمة.

٨ ـ وجاء الإسلام بالرحمة، وأنَّ من لا يرحم لا يُرحَم، وأنَّ الراحمين يرحمهم الرحمن، وفي هذا المعنى أحاديث عديدة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تُنزَع الرحمة إلَّا من شقيٍّ**»[4]، بل إنَّها رحمةٌ شملت حتى البهائم والدواب. عن أبي

---

(١) رواه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

(٢) رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٣) رواه الترمذي (١٣٩٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١١٢٦).

(٤) رواه أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٣). وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٧٤٦٧).

أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رحم ولو ذبيحة رحمه الله يوم القيامة**»[1]؛ وعن قرّة قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إنِّي لأذبحُ الشاةَ فأرحمها، قال ﷺ: «**والشاةُ إن رحمتَها رحمَك الله**»[2] مرّتين. وغُفر لرجل بسبب رحمته لكلب رآه يأكل الثرى من شدَّة العطش، فنزل بئراً فملأ خفَّه ثم أمسكها بفيه، فسقى الكلبَ فشكر الله له، فغفر له[3]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَةً معها فرخان، فأخذنا فرخيها. فجاءت الحمَّرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فَجَعَ هذه بولَدِها؟ رُدُّوا ولدَها إليها**»[4]. فانظر إلى هذه الرحمة العظيمة التي دعا إليها الإسلام، ثم تأمَّل ما قام به منفِّذو هذه الجرائم؛ أطفال يُتِّموا، ونساء رملن، وأرواح أزهقت، وقلوب روعت، وأموال أُتلفت، فأين رحمةُ الإسلام لو كان يعقلون؟!

٩ ـ وفي الإسلام نهيٌ عن ترويع المؤمنين وإرعاب المسلمين. فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ: أنهم كانوا يسيرون مع النبيِّ ﷺ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه، ففزع. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يَحِلُّ لمسلمٍ أن**

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨١)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٩٤).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٨٧).

(٣) رواه البخاري (٢٤٦٦)، ومسلم (٢٢٤٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه أبو داود (٢٦٧٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢٣٢٩).

يُرَوِّعَ مسلماً»[1]. وكم من مسلم رُوِّع وفَزِعَ وفُجِعَ تلك الليلة.

١٠ ـ وفي الإسلام نهيٌ عن حمل السلاح على المؤمنين. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن حمل علينا السلاحَ فليس منَّا»**[2]. وعن أبي موسى رضي الله عنه: عن النبيِّ ﷺ قال: **«إذا مرَّ أحدُكم في مسجدِنا ـ أو: في سُوقِنا ـ ومعه نَبْلٌ، فليُمْسِكْ على نِصَالِها، أو قال: فلْيَقْبِضْ بكَفِّه، أن يُصِيبَ أحداً من المُسلمينَ منها بشيء»**[3]. في هذه الجريمة إلقاء للمتفجِّرات المهلكة والأسلحة المُدمِّرة في أوساط المسلمين وداخل مساكنهم.

١١ ـ جاء في الإسلام النهي عن الإشارة إلى المسلم بسلاح أو نحوه، سواء كان جادّاً أو مازحاً، وعن تعاطي السيف مسلولاً حفظاً للناس وتحقيقاً للسلامة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبيِّ ﷺ قال: **«لا يُشِيرُ أحدُكم على أخيه بالسِّلاحِ، فإنه لا يَدْرِي لعلَّ الشَّيطانَ يَنْزِغُ في يَدَيْهِ، فيقعَ في حُفْرَةٍ من النَّارِ»**[4]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال أبو القاسم ﷺ: **«من أشارَ إلى أخيهِ بحديدةٍ، فإنَّ الملائكةَ تلعَنُهُ، حتى يَدَعَهُ، وإنْ كانَ أخاهُ لأبيهِ وأمِّهِ»**[5]. وعن جابر رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ نهى أن يُتعاطَى السَّيفُ مَسْلُولاً[6]. وكلُّ

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤١٨٤).

(٢) رواه البخاري (٧٠٧٠)، ومسلم (٩٨).

(٣) رواه البخاري (٧٠٧٥) ومسلم (٢٦١٥).

(٤) رواه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧).

(٥) رواه مسلم (٢٦١٦).

(٦) رواه أبو داود (٢٥٨٨)، والترمذي (٢١٦٣). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٨١٩).

ذلك من باب المحافظة؛ لئلَّا يقع إضرارٌ غير مقصود، وتأمَّل الوعيد: **«فيقع في حُفرة من النار»**، **«فإنَّ الملائكةَ تلعنه»**، فكيف إذاً بمثل هذه الجرائم الشنيعة، والإضرار المتعمد.

١٢ ـ وفي الإسلام تحريمٌ للخيانة والغدر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]. وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكلِّ غادرٍ لواءٌ يومَ القيامةِ يُرفَعُ له بقَدْرِ غدرِهِ، ألَا ولا غادرَ أعظَمُ غدراً من أمير عامةٍ»**[1]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: **«لكلِّ غادرٍ لواءٌ يُنْصَبُ يومَ القيامةِ بغدرتِهِ»**[2]. وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّرَ أميراً على جيشٍ أو سريَّةٍ، أوصاه في خاصَّتِهِ بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال: **«اغزوا باسْمِ الله، في سبيلِ الله، قاتِلُوا من كفرَ بالله. اغْزُوا، ولا تَغُلُّوا، ولا تغدِرُوا، ولا تَمْثُلُوا، ولا تَقْتُلوا وَليداً...»**[3]. وما أعظمَ الغدر الذي قام به هؤلاء، وما أشدَّ خيانتهم!!.

١٣ ـ في الإسلام تحريمٌ لقتل الصبيان والنساء والشيوخ الكبار، ففي حديث بُريدة: **«ولا تقتلوا وليداً»**. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن امرأةً وُجدت في بعض مغازي النبيِّ ﷺ مقتولَةً، فأنكرَ رسولُ الله ﷺ قتلَ النِّساءِ والصِّبيانِ[4]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«انطلقوا باسْمِ الله وبالله، وعلى ملة رسول الله،**

---

(١) رواه مسلم [١٦ ـ (١٧٣٨)].

(٢) رواه البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٥).

(٣) رواه مسلم (١٧٣١).

(٤) رواه البخاري (٣٠١٤)، ومسلم (١٧٤٤).

ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأةً...»[(١)]. وفي هذه الجريمة لم يُفرَّق بين صغير وكبير، ولا ذكَر وأنثى، بل ذهب ضحيَّتَها من الكبار والنساء والأطفال.

١٤ ـ وفي الإسلام حفظٌ للمواثيق والعهود، وتحريمٌ لقتل المعاهَدين والمستأمَنين، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ [المائدة: ١]. وعن عبد الله بن عمرو ﷺ: عن النبيِّ ﷺ قال: «**من قتلَ معاهَداً لم يَرَحْ رائحةَ الجنةِ، وإن ريحَها تُوجَدُ من مسيرةِ أربعينَ عاماً**»[(٢)]. وعن عمرو بنِ الحَمِقِ الخزاعيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من آمنَ رجلاً على دمِهِ فقتلَهُ، فأنا بريءٌ من القاتِلِ، وإنْ كان المقتولُ كافراً**»[(٣)]. ومَن دخل من الكفار ديار المسلمين بعقد أمان أو بعهد من وليِّ الأمر، لا يجوز الاعتداء عليه، لا في نفسه ولا في ماله، وأهل الإسلام ذمَّتهم واحدة. فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلمونَ تتكافأُ دماؤهم، يسعَى بذمتِهم أدناهُمْ...**»[(٤)]. وهؤلاء المعتدون لم يُراعوا ذمَم المسلمين، ولم يحفظوا المواثيق والعهود، وقتلوا المعاهدين والمستأمنين.

---

(١) رواه أبو داود (٢٦١٤)، وضعفه الألباني رحمه الله في «ضعيف سنن أبي داود (٥٦١).

(٢) رواه البخاري (٣١٦٦).

(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٩٨٢)، والطبراني في «الصغير» (٣٨) واللفظ له. وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (٣٠٠٧).

(٤) رواه أبو داود (٢٧٥١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢٣٩٠).

١٥ ـ وفي الإسلام تحريمُ الاعتداء على الآخرين وتدمير ممتلكاتهم. فعن أبي بَكْرَةَ ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «... **فإنّ دماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم بينكم حرامٌ، كحرمَةِ يومِكُم هذا، في شهرِكُم هذا، في بلدِكُم هذا**»[١]. وهؤلاء الجُناة المعتدون كم دمَّروا من المباني والمساكن، وكم أتلفوا من الأموال والممتلكات؟!.

١٦ ـ ونهى النَّبيُّ ﷺ عن رمي الناس ليلاً حالَ هجعتهم وسكونهم وراحتهم، وتوعَّد فاعله. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رمانا بالَّليلِ، فليسَ منَّا**»[٢]. وهؤلاء تخيَّروا جنح الليل لتنفيذ جريمتهم النَّكراء وفعلتهم الشنعاء.

وعلى كلٍّ، فإنَّ كلَّ مَن عرف الإسلامَ بأُسسه العظيمة وقواعده المتينة وتوجيهاته الحكيمة، يُدرك تمام الإدراك ويعلم علم اليقين مفارقة هذه الأعمال الإجرامية لهذا الدِّين، وأنَّها محرَّمةٌ في الشريعة لا يُقرُّها الدِّين الإسلامي الحنيف.

ولا يجوز أن تُنسَب هذه الأعمالُ الإجرامية إلى الدِّين، أو أن تُلصق بالمتديِّنين، أو أن يُنتقص لأجلها مِن شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو قوام الدين، أو من مناهج تعليم الدِّين أو غير ذلك، بل هي مواقف شاذة تُمثِّل أصحابها ومنفِّذيها، ويبوء بإثمها مَن قام بها وأعان عليها، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، والإسلامُ من هذه الأعمال براء. أقول ذلك نصيحة لدين الله من أن يُنسَب إليه ما ليس منه، ونصيحة لعباد الله المؤمنين من أن يُضاف إليهم ما ليس من أعمالهم، ولئلَّا يغترَّ جاهل وينخدع غافل، وقطعاً

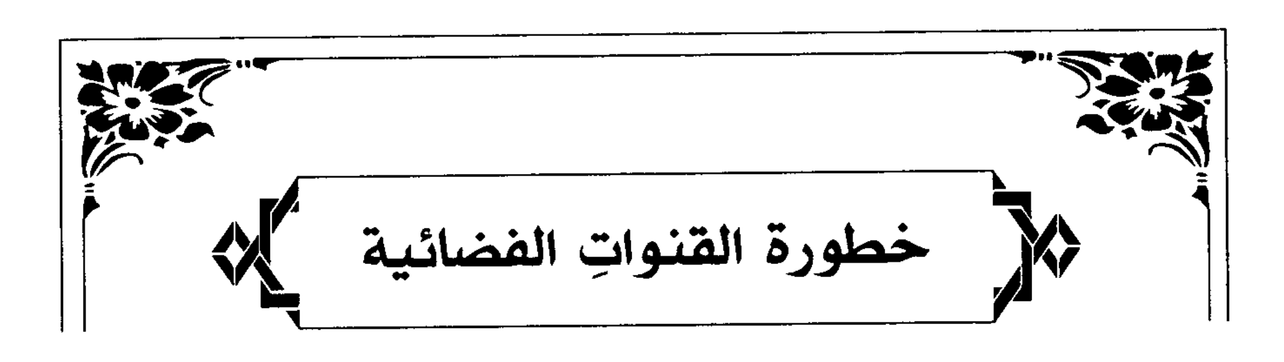
---

(١) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٢١)، وصححه الألباني ﷺ في «صحيح الجامع» (٦٢٧٠).

للطريق على مَن يريد الإساءة إلى هذا الدِّين العظيم من خلال مواقف لا تمثله وليست نابعةً من توجيهاته القويمة وإرشاداته الحكيمة، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، والله وحده المسؤول أن يُوفِّقنا لكلِّ خير، وأن يهدينا سواء السبيل، ونعوذ به سبحانه من مضلَّات الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونسأله سبحانه أن يحفظ على المسلمين أمنَهم وإيمانهم، وأن يصرف عنهم الشرورَ والفتنَ بمنِّه وكرمه، إنَّه سميعٌ مجيب.





خطورة القنواتِ الفضائية

إن المسؤولية تجاه النشأ عظيمة، والواجب نحوهم كبير، فهم أمانة في الأعناق وكلٌّ مسؤول عمن يعولُ يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، والرجلُ راعٍ في مالِ أبيهِ ومسؤولٌ عن رعيَّتِهِ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته**»[(١)].

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عن النبي ﷺ قال: «**إن الله سائلٌ كلَّ راعٍ عمّا استرعاهُ، أَحفظَ ذلك أم ضيَّعَ؟ حتى يسأَلَ الرجلَ على أهلِ بيتِهِ**»[(٢)].

وعن معقل بن يسارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

(٢) رواه النسائي في «الكبرى» (٩١٧٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٤٩٢). وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (١٧٧٤).

(٣) رواه البخاري (٧١٥١)، ومسلم (١٤٢) واللفظ له.

إننا نعيش هذه الأيام زمناً تكاثرت فيه الشرور وعظمت فيه الفتن، وصارت بسبب كثرتها يرقق بعضها بعضاً.

ولعل في هذا مِصْداقاً لقول النبي ﷺ: «... **وإن أمَّتَكُم هذه جُعِل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرَها بلاءٌ وأمورٌ تنكرونها، وتجئ فتنةٌ فَيرقِّقُ بعضها بعضاً. وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه. فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخلَ الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر**»[1].

ولقد تزايد في هذا الزمان كيدُ الكفار أعداءِ الله وأعداء دينه وأعداء عباده المؤمنين، مستهدفين ديار المسلمين، يبتغون خلخلة دينهم وزعزعة إيمانهم وتدمير أخلاقهم وإفساد سلوكهم، ونشر الفاحشة والرذيلة بينهم، وإخراجهم من حظيرة الإسلام، لا بلَّغهم الله ما يرجون.

ولقد كانوا سابقاً يعجزون عن الوصول إلى أفكار الشباب وعقول الناشئة لِبَثِّ ما لديهم من سموم، وعرض ما عندهم من كفر وإلحاد ومجون؛ وأما الآن فقد أصبحت تحمل أفكارهم الرياح، إنها رياح مهلكة، بل أعاصير مدمرة تقصف بالمبادئ والقيم، وتدمر الأديان والأخلاق، وتقتلع جذور الفضيلة والصلاح، وتجتث أصول الحق واليقين.

لقد تمكن أعداء دين الله من خلال القنوات الفضائية والبث المباشر من الوصول إلى العقول والأفكار، ومن الدخول إلى المساكن والبيوت، يحملون فتنهم وسمومهم، ويبثون كفرهم وإلحادهم ومجونهم. وينشرون رذائلَهم وحقاراتِهم وفجورَهم، في مشاهد زور، ومدارس خنًى وفجور؛ تطبع في نفوس النساء والشباب محبة العشق

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

والفساد والخمور، بل إنها بمثابة شَرَكِ الكيد وحبائل الصيد، تقتنص القلوب الضعيفة وتصطاد النفوس الغافلة، فتفسد عقائدها، وتحرِّف أخلاقها وتوقعها في الافتتان، ولا أشد من الفتنة التي تغزو الناس في عقر دورهم ووسط بيوتهم، محمومةً مسمومة محملة بالشر والفساد.

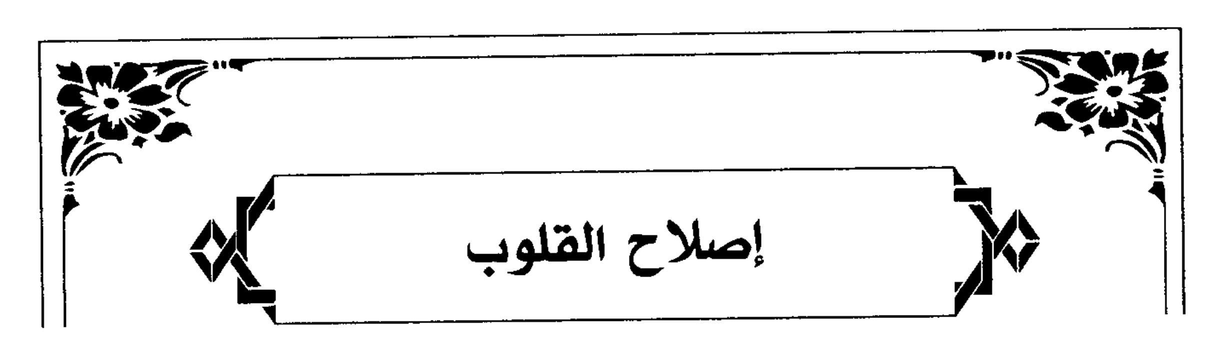
وللأسف، بل ومما يملَأُ القلب حزناً وكمداً، أن أصبح في أبناء المسلمين وبناتهم من يجلس أمام هذه الشاشات المدمِّرة ساعات طوال وأوقات كُثار، يصغِي بسمعه إلى هؤلاء، وينظر بعينَيْه إلى ما يعرضون، ويُقبل بقلبه وقالبه على ما يقدِّمون. ومع مر الأيام تتسلَّلُ الأفكارُ الخبيثة وتتعمق المبادئ الهدامة وتُغزى العقولُ والأفكار، ويتحقق للكفار ما يوَدُّون. قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٨ ـ ٩]، ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].

إن من يتأمل الأضرار والأخطار التي يجنيها من يشاهد ما يبثُّه هؤلاء، يجدها كثيرة لا تحصى وعديدة لا تستقصى؛ أضرار عقائدية، وأضرار اجتماعية، وأضرار أخلاقية، وأضرار فكرية ونفسية. فمن الأضرار العقائدية خلخلةُ عقائد المسلمين والتشكيك فيها ليعيش المسلم في حيرة واضطراب، وشك وارتياب؛ وإضعافُ عقيدة الولاء والبراء والحب والبغض ليعيش المسلم منصرفاً عن حب الله وحب دينه وحب المسلمين إلى حب زعماء الباطل ورموز الفساد ودعاةِ المجون، إضافة إلى ما فيها من دعواتٍ صريحة إلى تقليد النصارى وغيرهم من الكفار في عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم وغير ذلك.

ومن الأضرار الاجتماعية والأخلاقية ما تبثه تلك القنوات

الآثمة من الدعوة إلى الجريمة بعرض مشاهد العنف والقتل والخطف والاغتصاب، والدعوةِ إلى تكوين العصابات للاعتداء والإجرام، وتعليم السرقة والاحتيال والاختلاس والتزوير، والدعوةِ إلى الاختلاط والسفور والتعري وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، والدعوة إلى إقامة العلاقات الجنسية الفاسدة لتشيعَ الفاحشةُ وتنتشرَ الرذيلة؛ إضافة إلى ما فيها من إكساب النفوس طابع العنف والعدوان، بمشاهدة أفلام العنف والدماء والرصاص والأسلحة والجريمة. ناهيكَ عما تسببه تلك المشاهدات من إضاعة للفرائض والواجبات وإهمال للطاعات والعبادات، ولا سيما الصلواتُ الخمس التي هي ركن من أركان الإسلام. إلى غير ذلك من الأضرار والأخطار التي يصعب حصرها ويطول عدها ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

هذا بعض ما يقوم به هؤلاء ويسعون إلى الوصول إليه، فما الواجب علينا تجاه ذلك كله؟ أيليق بالمسلم أن يصغي لكيدهم ويركن لشرهم ويستمع لباطلهم؟ أيليق بالمسلم أن يرضى لنفسه وأبنائه الجلوسَ لمشاهدة ما ينشره هؤلاء والاستماع إلى ما يبثُّونه؟ أيليق بالمسلم أن يرضى لنفسه بالدنية ولأهله وبيته بالخزي والعارِ والرزية. لقد حذرَ الله عباده من الركون إلى الكفار، وبيَّن عظمَ شرهم وكبرَ خطرهم وفداحةَ كيدهم ومكرهم، وبين سبحانه لعباده السُّبُلَ السوية التي من سلكها نجا ومن سار عليها هدي إلى صراط مستقيم. إنها العودة الصادقة إلى دين الله والاعتصام الكامل بحبله والسير الحثيث على نهج رسول الله ﷺ، والصبرُ على ذلك كله إلى حين لقاء الله ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].



إصلاح القلوب

إنَّ أهمَّ ما ينبغي على المسلم إصلاحه والعناية به قلبه الذي بين جنبيه، فإنَّ القلب هو أساس الأعمال، وأصل حركات البدن وهو لها بمثابة الملك لجنده، فإن طاب القلب طاب البدن، وإن فسد فسد.

وقد كان ﷺ يهتم بإصلاح القلب غاية الاهتمام، ويُعْنَى به تمام العناية، ويوصي بذلك في كثير من أحاديثه الشريفة، ويُضَمِّن ذلك كثيراً من أدعيته المنيفة، فكان ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم اجعل في قلبي نوراً**»(١)، ويقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع**»(٢)، ويقول في دعائه أيضاً: «**اللهم نق قلبي من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس**»(٣)، ويقول أيضاً: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»(٤)، وكان يقول: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**»(٥).

إنَّ الواجب على كل مسلم أن يهتم بتزكية قلبه وإصلاحه وتنقيته

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: رواه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢)، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها: رواه البخاري (٦٣٧٥)، ومسلم (٥٨٩) [بعد الحديث (٢٧٠٥)].

(٤) رواه مسلم (٢٧٢٢)، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٥) رواه الترمذي (٢١٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٣٩).

مع عنايته بإصلاح ظاهره واهتمامه بتكميل الأعمال، إذ لا عبرة بصلاح الظاهر مع فساد الباطن؛ ومتى ما أصلح المسلم قلبه بالأعمال الزاكية والإخلاص والصدق والمحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ، استقامت جوارحه وصلح ظاهره، كما في حديث النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[1].

فهذا الحديث العظيم فيه أوضح إشارة إلى أنَّ صلاح حركات العبد الظاهرة بحسب صلاح حركة قلبه وباطنه، فإن كان قلبه سليماً ليست فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات جوارحه كلها، بخلاف ما إذا كان غالبه فاسداً قد استولى عليه حبُّ الهوى واتباع الشهوات وتقديمُ حظوظ النفس، فإن كان كذلك فسدت حركات جوارحه كلها.

ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له، منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره لا يخالفون في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحاً كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسداً كانت جنوده بسبب هذا فاسدةً.

ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩] والقلب السليم: هو السالم من الآفات المكروهات كلها، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله وخشية ما يباعد منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم القلب هو الأصل، فإذا

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

كان فيه معرفةٌ وإرادةٌ سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب. . . فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق».

ولهذا فإن من أعظم ما يقوي إيمان الشخص الظاهر والباطن، أن يجاهد نفسه مجاهدة تامة في إصلاح قلبه وعمارته بمحبة الله ومحبة ما يحبه، وبغض ما يبغضه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، ومن تم له هذا تم له إيمانه.

ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**من أحبَّ لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[1]. ومعنى هذا أنَّ كل حركات القلب والجوارح إذا كانت كلها لله فقد كمل إيمان العبد بذلك باطناً وظاهراً، ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحاً ليس فيه إلا إرادة الله وإرادة ما يريده لم تنبعث الجوارح إلا فيما يريده، سارعت إلى ما فيه رضاه، وكفت عما يكرهه وعما يخشى أن يكون مما يكره وإن لم يتيقن ذلك.

إنَّ القلب لا يخلو بحال من الفكر، إمَّا في واجب آخرته ومصالحها، وإمَّا في مصالح دنياه ومعاشه، وإمَّا في الوساوس الباطلة والأماني الفاسدة والمقدرات المفروضة، ومن كان يريد إصلاح قلبه فعليه أن يشغل فكره بما فيه صلاحُه وفلاحُه المحقق، ففي باب العلوم والتصورات يشغله بمعرفة ما يلزم من التوحيد وحقوقه، وفي

(١) رواه أبو داود (٤٦٨١) من حديث أبي أمامة ﷺ، وصححه لغيره الألباني ﷺ في «الصحيحة» (٣٨٠).

الموت وما بعده إلى دخول الجنة أو النار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها، وفي باب الإراذات والعزوم يشغله بإرادة ما ينفع إرادته وطرح إرادة ما يضر إرادته، وبذلك يكون المرء صحيحاً، وقلبه سليماً مطمئناً.

إنَّ أعظم عون للعبد على ذلك هو تكثير الشواهد النافعة في القلب لتقوى صلته بالله، ويزداد يقينه ويكمل إيمانه.

وقد أشار الإمام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مدارج السالكين» إلى جملة عظيمة من هذه الشواهد القلبية التي يعلم بها حقيقة هذا الأمر، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها وقلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها وسرعة انقضائها، فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها ترحل قلبه عنها وسافر في طلب الدار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وأنَّها هي الحيوان حقاً، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها بل هي دار القرار، ومحط الرحال ومنتهى السير، ثم يقوم بقلبه شاهدٌ من النار وتوقدها واضطرامها وبعد قعرها وشدة حرّها وعظيم عذاب أهلها فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سود الوجوه زرق العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم فلما انتهوا إليها فتحت في وجوههم أبوابها فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفاً... فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات ولبس ثياب الخوف والحذر... وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات... ثم يقوم بعد ذلك شاهد الجنة وما أعد الله لأهلها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فضلاً عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله ﷺ من النعيم المفصل الكفيل

بأعلى أنواع اللذة من المطاعم والمشارب والملابس والبهجة والسرور.

فيقوم بقلبه شاهدُ دارٍ قد جعل الله النعيم المقيم بحذافيره فيها، تربتها المسك، وحصباؤها الدر، وبناؤها لَبِنُ الذهب والفضة وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل وأطيب من رائحة المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والاستبرق، وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرشهم مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكؤون، وفي تلك الرياض يحبرون، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

فإذا انضم إلى هذا الشاهد شاهد يوم المزيد والنظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه بلا واسطة، فهناك يكون سير القلب إلى ربه أسرع من الرياح في مهابها، فلا يلتفت في طريقه يميناً ولا شمالاً...».

إنَّ هذه الشواهد العظيمة إذا اعتنى بها العبد في حياته وأعمل فكره فيها، كانت أعظم عون له على تطهير قلبه وتنزيهه من الأوصاف المذمومة والإرادات السافلة، وعلى تخليته وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه، وكانت أعظم باعث له على العبادة والمحبة والخشية والإنابة والافتقار إلى الله، والسعي في مرضاته تبارك وتعالى.

ثم إن الفتن التي تصيب القلوب نوعان: فتن الشهوات، وفتن الشبهات والغي والضلال. عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشرِبها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصيرَ على قلبين: على أبيضَ مثلِ الصَّفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ. والآخَرُ أسَودُ مُرْبَادّاً كالكُوزِ مُجَخِّياً، لا يعرفُ معروفاً ولا ينكرُ منكراً، إلا ما أُشْرِبَ من هَواهُ**»[1].

فقسَّم ﷺ في هذا الحديث القلوب عند عرض الفتن عليها إلى قسمين:

قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها القلب كما يشرب السفنج الماء فنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يُشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود ويتنكر وهو معنى قوله: «**كالكوز مجخياً**»، أي منكوساً؛ فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطيران، أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة، والحق باطلاً، والباطل حقاً.

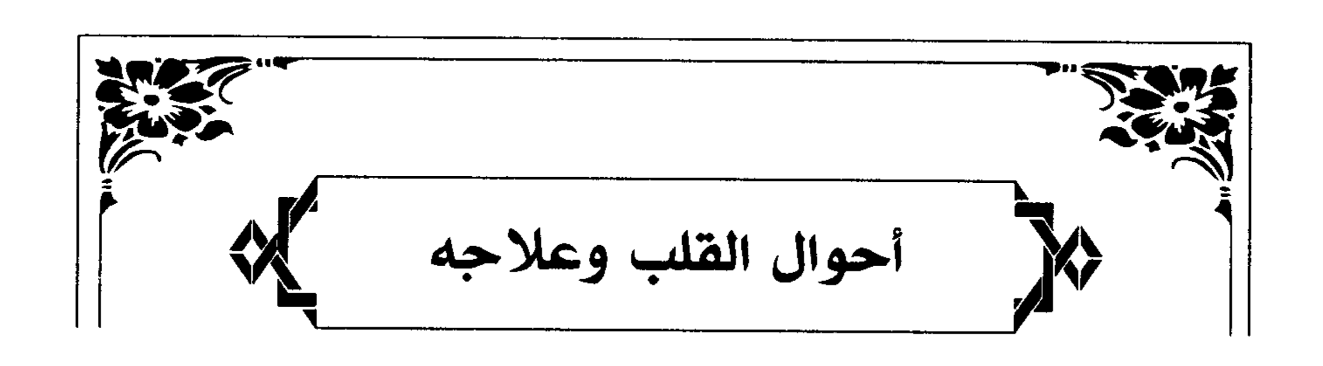
والثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ، وانقياده للهوى واتباعه له.

هذا قسم والقسم الثاني قلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها فازداد نوره وإشراقه وقوته.

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم أن يهتمَّ بسلامة قلبه عندما تشرئب الفتن وتكثر البدع ويعظم الجهل بدين الله، والله تعالى يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

---

(١) رواه مسلم (١٤٤).



أحوال القلب وعلاجه

إن القلب مضغة صغيرة في صدر الإنسان عظيمة الخطر كبيرة الأثر، صلاحه صلاح للبدن كله وللجوارح جميعها، وفساده فساد للبدن كله وللجوارح جميعها.

عن النُّعمانِ بن بشيرٍ رضي الله عنهما يقول: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «... **ألَا وإنَّ في الجسدِ مضغَةً إذا صلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّهُ، وإذا فسدَتْ فسَدَ الجسدُ كلُّهُ، ألَا وهيَ القلبُ**»[1]. فما أعظم خطر هذه المضغة، وما أكبر أثرها! فكل حركة وسكون تقع من الإنسان، وكل فعل أو ترك فرعٌ عن مراد هذه المضغة. بل لا يمكن للجوارح أن تتخلف عن ذلك، كما قال بعض السلف: «القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طاب الجند؛ وإذا فسد الملك، فسد الجند». وما أحوج الإنسان إلى العناية بهذه المضغة إصلاحاً وتنقية وتزكية وتطهيراً. ومن الدعوات المأثورة في هذا الباب؛ عن زيدِ بن أرقَمَ رضي الله عنه قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يقول: «... **اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكّاها، أنتَ وليُّها ومولاها**»[2].

وإن أهم ما ينبغي مراعاته في هذا المقام معرفةَ الغاية التي خلقت القلوب لأجلها وأُوجدت لتحقيقها، ألا وهي توحيد الله

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

وإخلاص الدين له. والقلوب في هذا الأمر على قسمين:

الأول: قلب مشغول بالله عاقل للحق مفكر في العلم مجتهد في تحقيق هذه الغاية، وهو بهذا يكون قد وضع في موضعه الصحيح، وحينئذ يكون له وجهان:

وجهٌ مقبلٌ على الحق علماً وعملاً سعياً وإذعاناً رغبة وطلباً تحقيقاً وتطبيقاً، ووجهٌ معرض عن الباطل منصرف عنه حذراً من الوقوع فيه ويقال له: القلب الزكي والقلب الطاهر والقلب السليم، لأن هذه الأسماء تدل على سلامة القلب من الشر وبعده عن الخبث وخلاصه من الآفات.

الثاني: قلب منصرف إلى الباطل منحرف عن الغاية التي أوجد لأجلها وخلق لتحقيقها، وله وجهان:

وجهٌ مقبلٌ على الباطل مشغول به، ووجهٌ معرض عن الحق غير قابل له وهما في الحقيقة آفتان: آفة الصدود عن الحق وآفة الإقبال على الباطل، ولكلٍّ منهما أضراره الجسيمة ونتائجه الوخيمة.

والباطل الذي ينشغل به القلب عن هذه الغاية نوعان:

أولاً: نوع يشغل القلب عن الحق ويزاحم الخير الذي فيه، دون أن يعانده ويصادمه كالأفكار والهموم والغموم، والأحزان الناشئة عن علائق الدنيا وشهوات النفس.

ثانياً: نوع يعاند الحق الذي في القلب ويصادمه ويصد عنه، مثل الآراء الباطلة والأهواء المردية من الكفر والنفاق والبدع ونحو ذلك.

فالأول يزاحم القلب، والثاني يصادم ما فيه[١].

---

(١) انظر: «طريق الوصول» لابن سعدي ص(١٦٢ ـ ١٦٣).

وعلاج الأول بالعودة بالقلب إلى التوحيد الخالص والإيمان الصحيح الذي خلق القلب لأجله، وعدم شغله بأمر آخر.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما: **«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»**[1].

وعن أسماء بنت عُمَيس رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الكَرْبِ - أَوْ فِي الكَرْبِ -: اللهُ اللهُ رَبِّي، لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»**[2].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«دَعَوَاتُ المَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»**[3].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إله إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ»**[4].

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٣٤٦)، ومسلم رقم (٢٧٠٣).

(٢) رواه أبو داود رقم (١٥٢٥)، وابن ماجه رقم (٣٨٨٢). وصحَّحه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» رقم (١٨٢٤).

(٣) رواه أبو داود رقم (٥٠٩٠)، وحسَّنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٨).

(٤) رواه الترمذي رقم (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٣).

وجميعُ هذه الكلمات الواردة في هذه الأحاديث كلماتُ إيمان وتوحيد وإخلاص لله ﷻ، وبُعد عن الشِّرك كلِّه كبيره وصغيره، وفي هذا أبيَنُ دلالة على أنَّ أعظمَ علاج للكرب هو تجديدُ الإيمان وترديدُ كلمة التوحيد لا إله إلَّا الله، فإنَّه ما زالَت عن العبد شدَّةٌ، ولا ارتفع عنه هَمٌّ وكَرْبٌ بمثل توحيد الله وإخلاص الدِّين له، وتحقيقِ العبادة التي خُلق العبدُ لأجلها وأُوجِدَ لتحقيقها؛ فإنَّ القلبَ عندما يُعمَرُ بالتوحيد والإخلاص، ويُشغَل بهذا الأمر العظيم الذي هو أعظم الأمور وأجلُّها على الإطلاق، تذهبُ عنه الكُرُبات، وتزولُ عنه الشدائدُ والغمومُ، ويَسعَدُ غايةَ السعادة.

قال ابن القيم رحمه الله: «التوحيدُ مفزَعُ أعدائه وأوليائه، فأمَّا أعداؤه فيُنجيهم من كُرَب الدنيا وشدائدها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وأمَّا أولياؤه فيُنجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها، ولذلك فزع إليه يونس عليه السلام فنجّاه اللهُ من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباعُ الرُّسل فنجوا به ممَّا عُذِّب به المشركون في الدنيا وما أُعدَّ لهم في الآخرة. ولمَّا فزع إليه فرعون عند مُعاينة الهلاك وإدراك الغرق لَم ينفعه؛ لأنَّ الإيمانَ عند المعاينة لا يُقبل، هذه سُنَّة الله في عباده، فما دُفعت شدائدُ الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاءُ الكرب بالتوحيد، ودعوةُ ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلَّا فَرَّجَ الله كُرَبَه بالتوحيد، فلا يُلقي في الكرب العظام إلَّا الشِّركُ، ولا ينجي منها إلَّا التوحيد، فهو مَفزَعُ الخليقة ومَلجَؤها وحِصنُها وغايتُها، وبالله التوفيق»[1] ا.هـ.

---

(١) «الفوائد» ص(٩٥ ـ ٩٦).

وعلاج الثاني بالهداية لهذا الدين الحنيف والتوفيق للدخول فيه، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

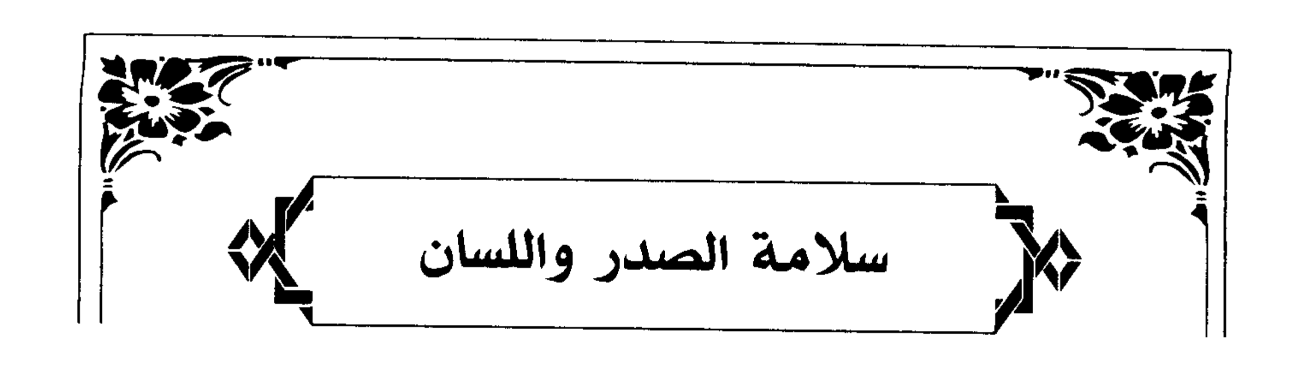
وكل منحرف عن هذا الدين منصرف عن الهدى، فقلبه مريض ولا شفاء له إلا بالدخول في هذا الدين. وفي غاية الظمأ والعطش، لا يرويه إلا معين هذا الدين الصافي ومنهله العذب.

قال أحد المهتدين لهذا الدين: «إنَّ غير المسلمين على اختلاف نحلهم ومللهم ظمأى، بل يكادون يهلكون من شدة الظمأ، وذلك لأنهم لم يجدوا ما يروي ظمأهم في عقيدتهم البالية محرفة كانت أو مؤلفة من روث عقولهم. ويالله العجب كلما شربوا منها ازدادوا ظمأً، وما كنت إلا واحداً من هؤلاء، ووالله ما ارتويت إلا من بعد أن نهلت من نهر هذا الدين العذب الصافي، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الجاثية: ٣٦]»[1]. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



---

(١) من مذكرة لمحمد حسين عبد الله الصيني.



سلامة الصدر واللسان

إن من سمات المؤمنين العظيمة وصفاتهم الكريمة الدالةِ على كمال إيمانهم وتمام دينهم ونبل أخلاقهم، سلامة صدورهم وألسنتهم تجاه إخوانهم المؤمنين، فليس في قلوبهم حسد أو غل أو بغض أو ضغينة وليس في ألسنتهم غيبة أو نميمة أو كذب أو وقيعة، بل لا يحملون في قلوبهم إلا المحبة والخير والرحمة والإحسان والعطف والإكرام، ولا يتلفظون بألسنتهم إلا بالكلمات النافعة والأقوال المفيدة والدعوات الصادقة. هؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]، فنعتهم ربهم بخصلتين عظيمتين وخلتين كريمتين إحداهما تتعلق باللسان، فليست في ألسنتهم تجاه إخوانهم المؤمنين إلا النصح والدعاء: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]؛ والخصلة الثانية متعلقة بالقلب، فقلوبهم سليمة تجاه إخوانهم، ليس فيها غل أو حسد أو حقد أو ضغينة أو نحو ذلك.

إن سلامة الصدر واللسان هما من أوضح الدلائل وأصدق البراهين على تمام الإيمان وكماله، وقد كان السلف رحمهم الله يعدُّون الأفضل فيهم من كان سليم الصدر سليم اللسان. قال إياسُ بنُ معاوية بن قرة: «كان أفضلُهُم عندهم ـ أي السلف ـ أسلَمهم صدوراً

وأقلهم غيبة». وقال سفيان بن دينار: قلت لأبي بشر: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا، قال: كانوا يعملون يسيراً ويؤجرون كثيراً. قال: قلت: ولم ذاك؟ قال: لسلامة صدورهم.

لقد كان السببُ الأعظمُ لسلامة صدور هؤلاء الأخيارِ وألسنتِهم، هو قوةَ صلتهم بالله وشدةَ رضاهم عنه؛ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه ـ أي الرضا عن الله ـ يفتح باب السلامة، فيجعل قلبه نقياً من الغش والدغل والغل، ولا ينجو من عذاب الله إلا مَن أتى الله بقلب سليم، كذلك وتستحيل سلامةُ القلب مع السخط وعدم الرضى؛ وكلما كان العبدُ أشدَّ رضًى كان قلبُه أسلمَ، فالخبثُ والدغل والغش قرين السخط. وسلامةُ القلب وبرُّه ونصحُه قرينُ الرضى، وكذلك الحسدُ هو من ثمرات السخط، وسلامةُ القلب منه من ثمرات الرضى» ا.هـ.

وثمرات سلامة القلب الذي هو ثمرة من ثمرات الرضى لا تعد ولا تحصى. فسلامة الصدر راحة في الدنيا وأنس وطمأنينة، وثوابه في الآخرة من أحسن الثواب، وغنيمته أكبر غنيمة.

لما دُخل على أبي دُجانة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو مريض، كان وجهه يتهلَّلُ فقيل له: ما لوجهك يتهلَّلُ؟ فقال: ما من عملٍ شيء أوثقُ عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، والأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً.

ومما يُعِينُ المسلمَ على سلامة صدره ولسانه تجاه إخوانه، اللجوءُ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وسؤاله بصدق وإخلاص، والنظرُ في العواقب الحميدة والنتائج المباركة في الدنيا والآخرة المترتبة على ذلك، وكذلك النظرُ في العواقب السيئة والنتائجِ الوخيمة التي يجنيها ويحصلها من كان في قلبه غل أو حقد أو حسد أو نحو ذلك.

وقد ثبت عن النبي ﷺ في أدعية كثيرة أُثِرَتْ عنه، سؤالُ الله هدايةَ القلب وسلامته وثباته؛ فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «... **اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها... اللهم إني أعوذُ بكَ من علم لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ...**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلِّبَ القلوبِ، ثبِّتْ قلبي على دينِكَ**»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ... وكان يقول في دعائه: «**اللهم اجعل في قلبي نوراً...**»(٣). إلى غير ذلك من أدعيته الشريفة، صلوات الله وسلامه عليه.

والواجب على كل مسلم أن يجاهد نفسه مجاهدة تامة في استصلاح قلبه وتزكية فؤاده وتنقيته من الإرادات السافلة والشهوات الدنيئة والغايات المنحطَّة، ويصبر على ذلك في حياته ليلقى الله بقلب سليم.

ومن الأدعية العظيمة النافعة في باب سلامة الصدر واللسان، ما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، مُرْني بشيء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ؟ قال: «**قل: اللهمَّ عالمَ الغيبِ والشهادةِ، فاطرَ السماواتِ والأرضِ، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ، أشهدُ أن لا إلهَ إلا أنتَ، أعوذُ بكَ من شرِّ نفسي، ومن شرِّ الشيطانِ وشِرْكِهِ**»

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).

وفي رواية أخرى: «**وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءاً أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ**» قال: «**قله إذا أصبحتَ، وإذا أمسيت، وإذا أخذتَ مضجعَك**»[1].

فقد تضمن هذا الحديث العظيم الاستعاذة بالله من الشر وأسبابه وغايته، فإن الشر كله إما أن يصدر من النفس أو من الشيطان فاستعاذ بالله منهما في قوله: «**أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه**». وغايةُ الشر إما أن تعود على العامل نفسه أو على أخيه المسلم، وفي هذا الحديث الاستعاذة من ذلك: «**وأن أقترفَ على نفسي سوءاً أو أجرَّه إلى مسلم**».

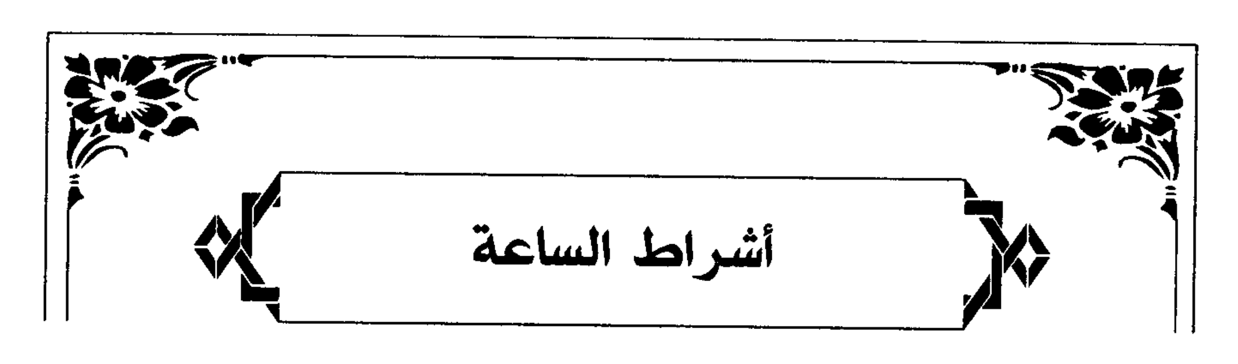
فتضمن هذا الحديث الاستعاذة من مصدرَيِ الشر اللذين يصدر عنهما، وغايتَيْه اللتين يصل إليهما.

فلله ما أكمله من دعاء وما أجمل مقاصده وأروع دلالته، وما أجمل أن يوظفه المسلم في أذكار صباحه ومسائه وعند نومه، كما أرشد إلى ذلك الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.



---

(١) رواه الترمذي (٣٣٩٢)، (٣٥٢٩)، وأبو داود (٥٠٦٧)، (٥٠٨٣)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٠١).



أشراط الساعة

إنَّ الساعة آتية لا ريب فيها وإتيانها قريب ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ولما كان أمر الساعة عظيماً شديداً كان الاهتمامُ بشأنها والعناية بأمرها أكثر من غيرها، ولذلك أكثر النبي ﷺ من بيان أشراطها وعلاماتها، وأخبر في نصوص كثيرة عما يقع بين يديها من الفتن البعيدة والقريبة، ونبه أمته وحذرها ليتهيَّؤُوا لذلك الأمر العظيم: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمد: ١٨].

لقد أخبر النبي الكريم في أدلة متكاثرة ونصوص متضافرة أن الساعة سيكون بين يديها أمارات عظيمة تدل على قرب مجيئها، وعلامات كثيرة تشير إلى دنو وقتها حثاً على الاستعداد، ودعوةً إلى التهيؤ والانتباه، وتحذيراً من اللهو والإعراض والغفلة.

عن حذيفة بن أَسِيدٍ الغفاريِّ رضي الله عنه قال: اطَّلَعَ النبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكَرُ، فقال: «**ما تذاكرُونَ؟**» قالوا: نذكُرُ السَّاعَةَ. قال: «**إنَّها لن تقومَ حتى تَرَونَ قبلَها عشْرَ آياتٍ. فذكر الدُّخَانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطلُوعَ الشَّمسِ من مغرِبِها، ونزولَ عيسى ابنِ مريمَ ﷺ، ويأجُوجَ ومأجُوجَ. وثلاثَةَ خُسوفٍ: خَسفٌ بالمشرِقِ، وخَسفٌ بالمغرِبِ، وخَسفٌ بجزيرةِ العربِ. وآخِرُ ذلكَ نارٌ تخرُجُ من اليَمنِ، تطرُدُ النَّاسَ**

إلى مَحْشَرِهِم»[1].

وقد دلت النصوصُ الواردةُ في ذلك على أن أمارات الساعة على ثلاثة أنواع: أمارات بعيدة وهي التي قد حصلت وانتهت كانشقاق القمر مثلاً، قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١ ـ ٢]. وكبعثته ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه: عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتَيْنِ**»[2].

والنوع الثاني: أمارات متوسطة أو علامات الساعة الصغرى وهي كثيرة، منها ما جاء في حديث جبريل المشهور، حيث قال للنبي ﷺ أخبرني عن علاماتها؟ قال: «**أن تلد الأمةُ ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشَّاءِ يتطاولون في البنيان**»[3].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أشراطِ الساعةِ أن يُرفَعَ العلمُ، ويثبُتَ الجهلُ، ويُشرَبَ الخمرُ، ويظهَرَ الزِّنا**»[4].

وعن عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قالا: قال النبيُّ ﷺ: «**إن بينَ يدَيِ الساعةِ لأياماً ينزِلُ فيها الجهلُ، ويُرفَعُ فيها العلمُ، ويكثرُ فيها الهرجُ، والهرجُ القتلُ**»[5].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من**

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠١).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١).

(٣) رواه مسلم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١).

(٥) رواه البخاري (٧٠٦٢ و٧٠٦٣)، ومسلم (٢٦٧٢).

أشراطِ الساعةِ الفحشَ والتفحُّشَ، وقطيعةَ الأرحام، وائتمانَ الخائنِ، وتخوينَ الأمينِ»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: عن النبيِّ ﷺ قال: «**بينَ يدَيِ السَّاعةِ: تسليمُ الخاصَّةِ، وفُشُوُّ التِّجارَةِ حتى تُعينَ المرأةُ زوجَها على التِّجارَةِ، وقطعُ الأرحامِ، وفُشُوُّ القلَمِ، وظهورُ الشَّهادَةِ بالزُّورِ، وكتمانُ شهادَةِ الحَقِّ**»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا ضُيِّعَتِ الأمانَةُ فانتظِرِ السَّاعَةَ**». قال: كيف إضاعتُها يا رسول الله؟ قال: «**إذا أُسنِدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ، فانتظِرِ السَّاعَةَ**»[3]. والأحاديث في هذا كثيرة.

والنوع الثالث من أمارات الساعة: الأماراتُ العظام، وهي الأمارات الكبيرة التي تظهر قبل قيام الساعة عند دنوها، كخروج الدجال والمسيح ابن مريم والمهدي وطلوع الشمس من مغربها وغيرها، وقد مر معنا حديثُ حذيفة بن أسيد رضي الله عنه في عد تلك العلامات، وورد في بيانها أحاديثُ عديدة. ومن شأن هذه العلامات العظام أنها إذا ظهرت واحدةٌ منهن تتابعن بعدها، ولم ينفعْ حينئذٍ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا

---

(١) رواه البزار «كشف الأستار» (٣٤١٣)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٢٣٨).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٤٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٨٠٥).

(٣) رواه البخاري (٦٤٩٦).

﴿... إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»**[1].

وإن أعظم هذه العلامات وأشدها فتنةً خروجَ المسيح الدجال، أعاذنا الله وإياكم من فتنته.

عن عمرانَ بنِ حُصَينٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«ما بينَ خلقِ آدمَ إلى قيامِ السَّاعَةِ أمرٌ أكبَرُ منَ الدَّجَّالِ»**[2].

ولذلك كان ﷺ يحذرُ أمته منه ويأمرهم بالاستعاذة من فتنته مطلقاً وأدبار الصلوات المكتوبة، وكان يخبر عن الأنبياء قبله أنهم كانوا يحذرون أممهم من فتنته، وكان يذكر صفته وأخباره وكيف تتقى فتنتُهُ.

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: **«ما بُعِثَ نبيٌّ إلا أنذَرَ أمَّتَهُ الأعوَرَ الكذّابَ، ألا إنه أعورُ وإن ربَّكُم ليسَ بأعَورَ، وإن بينَ عينَيْهِ مكتوبٌ: كافرٌ»**[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أحدِّثُكُم حديثاً عن الدَّجَّالِ؟ ما حدَّثَ به نبيٌّ قومَهُ: إنَّهُ أعَورُ، وإنه يجيءُ معه بمِثالِ الجنَّةِ والنَّارِ. فالَّتي يقول: إنها الجنَّةُ، هي النَّارُ. وإني أُنذِرُكُم، كما أَنذَرَ به نوحٌ قومَهُ»**[4].

---

(١) رواه مسلم (١٥٨)، وأحمد (٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٤٦).

(٣) رواه البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣).

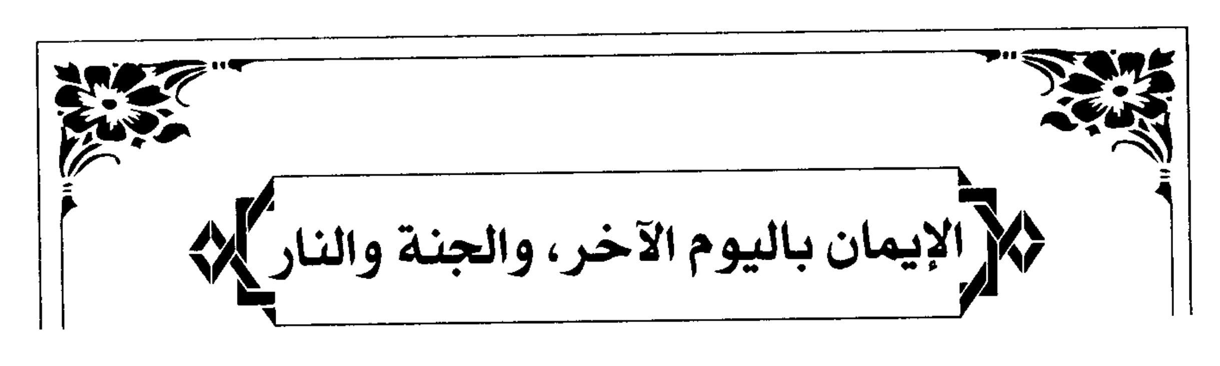
(٤) رواه البخاري (٣٣٣٨)، ومسلم (٢٩٣٦).

وعن عمرانَ بن حصينٍ رضي الله عنه: عن النبيِّ ﷺ قال: «**من سمعَ بالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عنه...**»[1] أي فليبتعد عنه.

اللهم أعذنا من الفتن كلها والشرور جميعها، اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال.



(١) رواه أحمد (٤/ ٤٣١)، وأبو داود (٤٣١٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٣٠١).



الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار

إنَّ من أصول الدين الراسخة وأسس الإيمان الثابتة الإيمانَ بكل ما أخبر الله ﷻ به، وما أخبر به رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت، بل إن الإيمان بذلك يعد ركناً من أركان الإيمان العظيمة التي لا إيمان إلا بالإيمان بها، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٥ ـ ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]. فالخلق جميعهم سيقفون يوم القيامة بين يدي الله ﷻ ليجزيهم بأعمالهم، وليحاسبهم على ما قدموا في هذه الحياة ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وسيعطى كلٌّ واحد منهم كتاباً حاوياً لأعماله محيطاً بما قدم، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها، وكلٌّ سيجد ذلك حاضراً أمامه، لا محيص عنه ولا مفر ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣]. ويكون عنوان أهل السعادة أن يعطوا كتبهم بأيمانهم، فيكونُ ذلك أولَ البشرى بما تحتوي عليه كتبهم من الخيرات، ويُعطى أهلُ الشقاء كتبَهم بشمائلهم ومِن وراء ظهورهم بشارةً لهم بالشقاوة وفضيحةً لهم بين الخلائق ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا

﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ١٢]. وعلى إثر ذلك ينقسم الناسُ إلى فريقين: فريقٍ في الجنة وفريقٍ في السعير ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٥ ـ ١٠٨].

وقد وصف الله تعالى في القرآن الكريم عذاب النار ووصف أهلها بأفظع الأوصاف، وأنَّه سبحانه جمع لهم فيها بين أصناف العذاب وألوان العقوبات، فيعذبهم بالنار المحرقة التي تطلع على الأفئدة؛ وكلما احترقت جلودهم في النار بُدِّلوا جلوداً غيرها، ليُعاد عليهم العذابُ، ويذوقوا شدته. ويعذِّبُهم فيها بالجوع المفرط والعطش الشديد، فإنهم إذا استغاثوا للشراب لشدة عطشهم أغيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، ويقطِّع الأمعاء، ويزيدُ عطشَهم شدة على شدة، فإذا استغاثوا للطعام لشدة الجوع أُتي لهم بالزقوم الذي حرارته أعظم من الرصاص المذاب، وهي في غاية الحرارة وقبح الريح وخبث المنظر، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، فيأكلون لشدة جوعهم فيغلي في بطونهم كغلي الحميم. مع ذلك ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠]، ثم هم فيها يترددون في عذابهم بين لهب النار وحرارتها التي لا يمكن وصفها، وبين برد الزمهرير الذي يكسر العظام من قوة برده، وقد وصفها سبحانه بأنها تكاد تميز من الغيظ على أهلها، وأنَّ لها زفيراً وشهيقاً، وأنها تَطَّلع على الأفئدة فتنفذ من الأجسام إلى القلوب، وأنها على أهلها مؤصدة أي مغلقة، في عمد

ممددة: أي أن من وراء أبوابها عمداً ممددة تحكم غلق أبوابها لئلا يخرجوا منها. نسأل الله الكريم العافية والسلامة من ذلك، وأن يجيرنا وإياكم من النار، وأن يجنبنا وإياكم أسباب دخولها. ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

ثم إن الله ﷻ قد وصف في القرآن الكريم الجنة، وما أعد فيها لأهلها من النعيم، وما عليه أهلها من الفرح والسرور، وأن نعيمها شامل لنعيم الأبدان وسرور الأرواح، وأفراح القلوب، وشهوات النفوس، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وأخبر سبحانه أن جميع أصناف النعم والملاذ موجودة فيها، لهم فيها أزواج مطهرة من كل عيب ودنس، خيِّراتُ الأخلاق، حِسانُ الوجوه، قاصرات الطرف، مقصورات في الخيام، كأنهن الياقوت والمرجان. أنشأهن اللهُ إنشاءً كاملاً بديعاً فجعلهنَّ أبكاراً دائماً، عُرُباً يتحببن إلى أزواجهن بتحسين الظاهر والباطن، أتراباً على سن واحدة ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٦ ـ ٥٨]. لهم فيها فواكه كثيرة منها يأكلون، قطوفها دانية يتناولها من اشتهاها بكلِّ سهولة قائماً وقاعداً وعلى كل حال ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣]، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، ﴿فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد: ١٥]. يطوف عليهم فيها ولدان مخلدون منعمون، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]؛ يطوفون عليهم ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٨ ـ ١٩]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ﴾

[الزخرف: ٧١]. ولهم فيها ما يدَّعون ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]. ويَحِلُّ عليهم فيها رضوان الله فلا يسخطُ عليهم أبداً، ويتجلى لهم فينظرون إليه، فلا يجدون نعيماً أكمل من النظر إلى الله عز وجل. فيجتمع لهم نضرةٌ في وجوههم ونظرٌ إلى ربهم وبارئهم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]؛ فيبقون في هذا النعيم أبد الآبدين في نعيم متواصل، وفرح مستمر، وعطاء غير مجذوذ.

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيَوْا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشِبُّوا فلا تهرَمُوا أبداً، وإن لكم أن تنعَمُوا فلا تبأَسُوا أبداً**». فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣][1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**من يدخُلِ الجنَّة ينعَمْ لا يبأَسْ، لا تبْلَى ثيابُه، ولا يفْنَى شبابُه**»[2].

رزقنا الله وإياكم الجنة، وأكرمنا وأكرمكم بدخولها، اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

والجنة معدّة لأهلها مهيأة لمن سعى لها سعيها، يقول الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

(١) رواه مسلم (٢٨٣٧).
(٢) رواه مسلم (٢٨٣٦).

إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣ ـ ١٤].

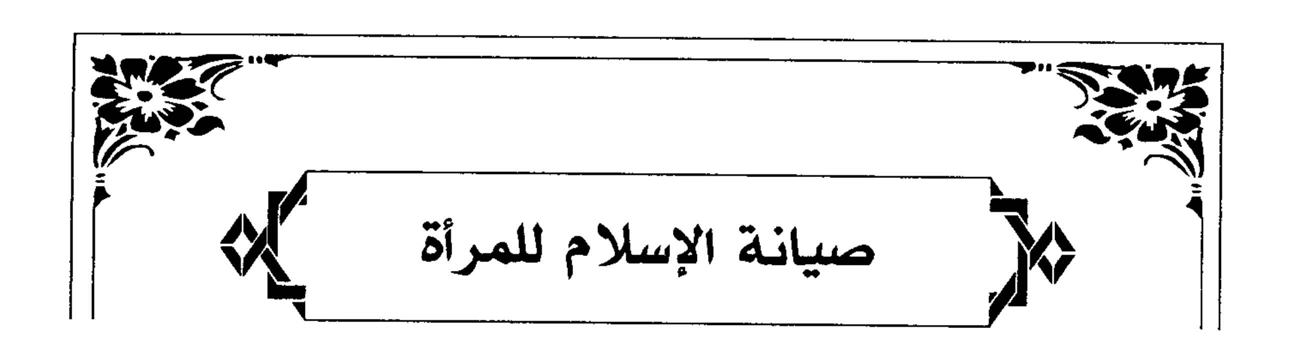
وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ أمَّتي يدخلونَ الجنَّةَ إلا من أبى**» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «**من أَطاعَنِي دخلَ الجنَّةَ، ومن عَصانِي فقد أبى**»(١).

فالجنة طريقها واضحة وأبوابها مشرعة ومعالمها ظاهرة؛ والكيِّس منا، مَنْ أعدَّ لها عدَّتها وهيَّأ لها أعمالها، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.



---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٠).



صيانة الإسلام للمرأة

إن نعمة الله على المرأة المسلمة عظيمة، ومنته عليها كبيرة جسيمة، حيث هيأ لها في الإسلام أسبابَ سعادتها وصيانةَ فضيلتها وحراسةَ عفَّتِها وتثبيت كرامتها ودرءَ المفاسدِ والشرور عنها، لتبقى زكية النفس طاهرة الخلق منيعة الجانب، مصونةً عن موارد التهتك والابتذال محميةً عن أسباب الزيغ والانحراف والانحلال. نعم لقد أكرم الإسلام المرأة المسلمة أعظم إكرام وصانها أحسن صيانة، وتكفل لها بحياة كريمة شعارها الستر والعفاف ودثارها الطهر والزكاء ورايتها إشاعةُ الأدب وتثبيتُ الأخلاق وغايتها صيانة الشرف وحماية الفضيلة، وستبقى المرأةُ المسلمة رفيعةَ الجانب عزيزة المنال صيِّنة الأخلاق ما دامت متمسكةً بدينها محافظة على أوامر ربها مطيعة لنبيها رسول الله ﷺ، مسلمة وجهها لله مذعنة لشرعه وحكمه بكل راحة وثقة واطمئنان، غير ملتفتة إلى الهمل من الناس من دعاة الفاحشة والفتنة ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [النساء: ٢٧].

إن المرأة المسلمة في هذه الأزمان تتعرض لهجمات شرسة ومؤامرات حاقدة ومخططات آثمة، تستهدف الإطاحة بعفتها وهتك شرفها ودك كرامتها ووَأْدَ فضيلتها وخلخلة دينها وإيمانها، وإلحاقها بركب العواهر والفاجرات، وذلك من خلال قنوات فضائية مدمرة ومجلات خليعة هابطة، وشغلها بأنواع من الألبسة الكاسية العارية،

وتهييج قلبها إلى حب التشبه بغير المسلمات ممن يمشين على الأرض دون إيمان يردع، أو خلق يزَعُ أو أدب يمنع. وجرها من وراء ذلك كله إلى منابذة الشريعة وجر أذيال الرذيلة، والبعدِ عن منابع العفة والفضيلة، لا مكنهم الله مما يريدون.

ولقد دلت النصوص الشرعية أن الفتنة بالمرأة إذا وقعت ترتب عليها من المفاسد والمضار وسوءِ العواقب، ما لا يُدرك مداه ولا تحمد عقباه. فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء**»[1]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنةِ بني إسرائيل كانت في النساء**»[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان**»[3] أي اتخذها غرضاً له لتهييج الفاحشة وإشاعة الرذيلة وفتنِ الرجال بها، لا سيما إذا خرجت متجملة متعطرة مزينة، مظهرة لبعض مفاتنها، مبديةً لبعض محاسنها. فهنالك يعظم الشر، ويتزايد الفساد.

ومن يتأمل التاريخ على طول مداه يجد أن من أكبر أسباب انهيار الحضارات وتفكك المجتمعات وتحلل الأخلاق وفساد القيم وفشو الجرائم، هو تبرج المرأة ومخالطتها للرجال ومبالغتها في الزينة، وخلوتها مع الأجانب وارتيادها للمنتديات والمجالس العامة وهي في أتم زينتها وأبهى حلتها وأكمل تعطرها.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

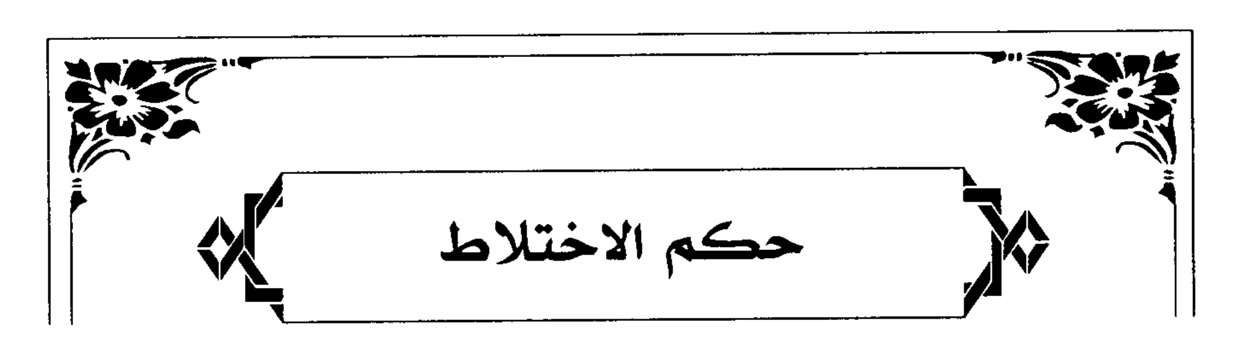
(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٣) رواه الترمذي (١١٧٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٩٣٦).

والإسلام لم يفرض على المرأة الحجاب ولم يمنعها من تلك الأمور، إلا ليصونها عن الابتذال وليحميها من التعرض للريبة والفحش، وليمنعها من الوقوع في الجريمة والفساد وليكسوها بذلك حلة التقوى، والطهارة والعفاف، وتسدَّ بذلك كل ذريعة تفضي إلى الفاحشة. قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ الآية [النور: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٩﴾ [الأحزاب: ٥٩]، إلى غير ذلك من النصوص العظيمة التي تهدف إلى صيانة المرأة المسلمة وتحقيق عفتها وحفظ كرامتها، وإبعادها عن أسباب الشر وبذور الفتن.

فنسأل الله الكريم أن يحفظ نساءنا ونساء المسلمين من كل شر وبلاء، وأن يجنبهن الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يرد كيد من أراد بهن شراً في نحره، إنه سميع الدعاء وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.





حكم الاختلاط

إن الدين الإسلامي الحنيف بتوجيهاته السديدة وإرشاداته الحميدة صان المرأة المسلمة، وحفظ لها شرفها وكرامتها، وتكفل لها بعزها وسعادتها، وهيأ لها أسباب العيش الهنيء بعيداً عن مواطن الريب والفتن، والشر والفساد، وهذا كله من رحمة الله بعباده حيث أنزل شريعته ناصحةً لهم، ومصلحةً لفاسدهم، ومقومةً لاعوجاجهم، ومتكفلةً بسعادتهم. ومن ذلك ـ عبادَ الله ـ ما شرعه الله من التدابير الوقائية العظيمة والإجراءات العلاجية القويمة التي تقطع دابر الفتنة بين الرجال والنساء، وتعين على اجتناب الموبقات والبعدِ عن الفواحش المهلكات، رحمةً منه بهم، وصيانةً لأعراضهم وحمايةً لهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وقد جاء في الإسلام ما يدل على أنَّ الفتنة بالنساء إذا وقعت، يترتب عليها من المفاسد والمضار ما لا يدرك مداه ولا تحمد عاقبته.

فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنةً هي أضر على الرجال من النساء**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢).

ومن يتأمل التاريخ على طول مداه يجد ذلك، فإن من أكبر أسباب انهيار الحضارات وتفكك المجتمعات وتحلل الأخلاق وفساد القيم وفشو الجريمة هو تبرج المرأة ومخالطتها للرجال، ومبالغتُها في الزينة والاختلاط، وخلوتُها مع الأجانب وارتيادُها للمنتديات والمجالس العامة وهي في أتم زينتها وأبهى حلتها وأكمل تعطرها.

والإسلامُ لم يفرض على المرأة الحجاب ولم يمنعها من تلك الأمور إلا ليصونها عن الابتذال، وليحميها من التعرض للريبة والفحش، وليمنعها من الوقوع في الجريمة والفساد، وليكسوها بذلك حلة التقوى والطهارة والعفاف، وسد بذلك كلَّ ذريعة تفضي إلى الفاحشة.

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ الآية [النور: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وعن عبد الله بن مسعود ﵁: عن النبي ﷺ قال: «**المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان**»[١].

وعن أم حميد الساعدية ﵂: أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ

---

(١) رواه الترمذي (١١٧٣)، وصححه الألباني ﵀ في «صحيح سنن الترمذي» (٩٣٦).

فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك. فقال: «**قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير لك من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير لك من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير لك من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير لك من صلاتك في مسجدي**»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها**»[2]. كل ذلك حفظاً للمرأة من الاختلاط بالرجال ومزاحمتهم، وهذا في حال العبادة والصلاة التي يكون فيها المسلم أو المسلمة أبعد ما يكون عن وسوسة الشيطان وإغوائه، فكيف إذاً بالأمر في الأسواق والأماكن العامة ونحو ذلك؟!

ولما دخلت على عائشة ﷺ مولاةٌ لها وقالت: يا أم المؤمنين طفت بالبيت سبعاً واستلمت الركن مرتين أو ثلاثاً، فقالت عائشة ﷺ: «لا آجرك الله لا آجرك الله تدافعين الرجال، ألا كبرتِ ومررتِ؟!». قالت لها ذلك مع أنها في أشرف مكان وخير بقعة ومكان طاعة بجوار الكعبة، فكيف الأمر بمن تزاحم الرجال في الأسواق والأماكنِ العامة وهي في كامل زينتها وأجمل حليتها؟!

فهنيئاً للمرأة المسلمة إذا عاشت حياتها ممتثلة هذا التوجيه الكريم والهدي القويم، غير ملتفتة إلى الهمل من الناس من دعاة الفاحشة والفتنة ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٧١)، وحسنه لغيره الألباني ﷺ في «صحيح الترغيب» (٣٤٠).

(٢) رواه مسلم (٤٤٠).

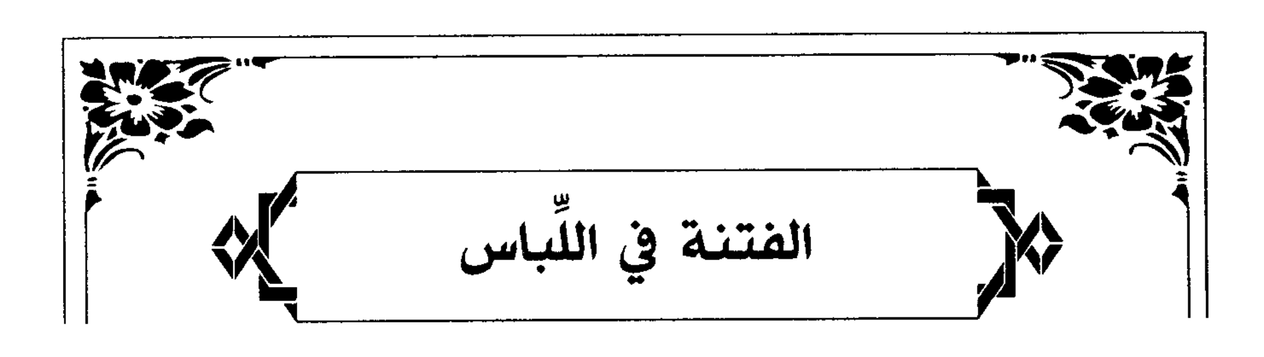
﴿يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [النساء: ٢٧].

ثم إن الإسلام إنما حرم على المرأة ذلك ومنعها منه، حماية لها وللمجتمع كله من أن تنحَلَّ أخلاقه وتتفكك عراه، وتفشوَ فيه الجريمة، ويعظمَ فيه الفساد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة. واختلاطُ الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة» انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وثمة أصل عظيم لا بد من التنبيه عليه، ألا وهو أن أحكام الشرع المتعلقة بالمرأة أو غيرها محكمة غاية الإحكام متقنة غاية الإتقان، لا نقص فيها ولا خلل، ولا ظلم فيها ولا زلل، كيف وهي أحكام خير الحاكمين وتنزيل رب العالمين، الحكيم في تدبيره البصير بعباده، العليم بما فيه سعادتهم وفلاحهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة. ولهذا فإن من أعظم العدوان وأشد الإثم والهوان أن يقال في شيء من أحكام الله المتعلقة بالمرأة أو غيرها: إن فيها ظلماً أو هضماً أو إجحافاً أو زللاً، ومن قال ذلك أو شيئاً منه فما قدر ربه حق قدره ولا وقره حق توقيره، والله جل وعلا يقول: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: ١٣] أي لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير: التعظيم، ومن توقيره سبحانه أن تلتزم أحكامه وتطاع أوامره ويعتقد أن فيها السلامة والكمال والرفعة. ومن اعتقد فيها خلاف ذلك، فما أبعده عن الوقار وما أجدره في الدنيا والآخرة بالخزي والعار.

اللهم اشرح صدورنا لالتزام شرعك والتمسك بدينك، وجنبنا الفتن كلها ما ظهر منها وما بطن. اللهم وأصلح نساء المسلمين وبناتهم.



الفتنة في اللِّباس

إنَّ من نعم الله العظيمة على عباده نعمة اللباس بأنواعه المختلفة وأصنافه العديدة، يقول الله تعالى مذكِّراً بهذه النعمة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: ٨٠ ـ ٨٣].

فبيَّن جلَّ وعلا في هذه الآيات العظيمة نعمته على عباده بأن جعل لهم سرابيل وهي القُمصان ونحوُها من ثياب القطن والكتَّان والصوف، يتَّقون بها الحرَّ والبرد ويتجمَّلون به ويسترون بها عوراتهم.

فلا ريب أنَّ اللباس نعمةٌ عظيمةٌ ومنَّةٌ كبيرةٌ يجب على عبد الله المؤمن أن يقوم بشكرها وأن يستعملها في طاعة الله ورضوانه وما يقرِّب إليه، وأن يحذر أشدَّ الحذر من مخالفة أمر الله في اللباس في صفته ونوعه وشروطه وضوابطه، وآدابه التي جاءت بها الشريعة.

وليحذر المسلمُ في هذا الباب من كيد الشيطان ومكره وطرقه الخفيَّة لصدِّ الإنسان عن الحق في هذا الباب وإيقاعه في أنواع من المخالفات، فقد بيّن الله تعالى أنَّ عداوة الشيطان للإنسان في هذا الأمر وغيره قديمة، وذكر سبحانه في القرآن احتياله على الأبوين

ووسوسته لهما ليبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما، ودخل عليهما في هذا الأمر من طرق خفيَّة، وظهر لهما بصورة الناصح الأمين، وحلف لهما على ذلك، ودلَّاهما بغرور، أي أنزلهما عن رتبتهم العليَّة التي هي البعدُ عن المعاصي والذنوب إلى الوقوع فيها.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٣].

فتداركهما الله برحمته ومنَّ عليهما بعفوه، فغفر لهما ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢]، هذا وإبليس مستمرٌّ في طغيانه، غيرُ مقلع عن عصيانه، حريص أشدَّ الحرص على إغواء الذريَّة كما أغوى الأبوين، ولهذا اتَّجه الخطاب في هذا السياق الكريم إلى الذريَّة للحذر من هذا المضلِّ الفتَّان من أن يفتنهم بالوسوسة كما فعل مع الأبوين، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦]، فذكَّرهم سبحانه بما منَّ عليهم ويسَّر لهم من اللباس الباطن والظاهر، فاللباس الباطن هو تقوى الله، وهو يستمر مع العبد ولا يبلى ولا يبيد ما حافظ عليه العبد، وهو جمال للقلب والروح، واللباس الظاهر هو الذي يستر به المسلم عورته ويواري به سوأته ويكون جمالاً للناس.

وإذا فقد الإنسان لباسه الظاهر أو نزعه بدت سوأتُه، وفي هذا دليل على أنَّ كشف العورة من عظائم الأمور، وأنَّه مستهجن في الطباع، ولذلك سُميت سَوأة؛ لأنَّه يسوء صاحبُها انكشافَها، وأمَّا اللباس الباطن وهو التقوى فبتقدير عدمه فإنها تنكشف عورته الباطنة وينال الخزي والفضيحة ويقع في أنواع الفساد والرذيلة، ويتعرَّى بذلك من كساء الحياء والخوف والمراقبة والستر والعفَّة وغير ذلك، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؛ لأنَّه يترتَّب على صلاحه صلاح الظاهر، ويترتَّب على فساده فساد الظاهر.

ثم قال سبحانه بعد تذكيره بهذه النعمة موجِّهاً الخطاب للذريَّة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧]، فحذَّر سبحانه الذريَّةَ من أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم بأن يزيِّن لهم المعاصي ويرغِّبهم في المحرَّمات، ويوقعهم في الخطيئة، وأخبر سبحانه أنَّ هذا العدوَّ يراهم من حيث لا يرونه. قال مالك بن دينار: «إنَّ عدوّاً يراك ولا تراه، لشديد المؤنة إلا من عصم الله».

وإذا كان هذا العدوُّ قد تمكَّن ببالغ كيده وشدَّة اهتمامه وتوالي وسوسته أن يخرج الأبوين من الجنَّة؛ فلأن يتمكَّن من إيصال شيء من هذه المضار وإلقاء شيء من هذه الوساوس إلى الذريَّة من باب أولى، ولا سيما النِّساء؛ لشدَّةِ ضعفهنَّ وقلَّة إدراك كثير منهنَّ.

وبهذه اللفتة القويَّة حذَّر تعالى بني آدم منه بالاحتراز الدائم من كيده ووسوسته، وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. أمَّا المؤمنون فليس له سلطان عليهم، ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠]، ولهذا

فبقدر ضعف الإيمان في الإنسان، يكون نفوذُ الشيطان إليه.

ثمَّ إنَّ الله تبارك وتعالى خاطب بني آدم خطاباً آخر في هذا السياق، له تعلّق باللباس فقال سبحانه: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: ٣١ ـ ٣٢].

فأخبر سبحانه أنَّه أخرج لعباده الزينة من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه والطيِّبات من الرزق من مأكل ومشرب بجميع أنواعه، وجميعُ هذه الأشياء الأصلُ فيها الإباحة والحل، إلا ما جاءت الشريعة بتحريمه من ذلك، وليس لأحد أن يحرِّم شيئاً من ذلك إلا بدليل شرعي صريح، ولذا قال سبحانه: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، أي مَن هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله على العباد؟ ومَن ذا الذي يضيِّق عليهم ما وسَّعه الله؟ ولهذا فالأصل في العادات من المآكل والمشارب والملابس والذهاب والمجيء والكلام وسائر التصرُّفات المعتادة الحِلُّ، فلا يحرم منها إلَّا ما حرَّمه الله ورسوله، إمَّا بنصٍّ صريح أو يدخل في عموم أو قياس صحيح، وإلَّا فسائر العادات حلال، كما دلَّ على ذلك النص المتقدِّم، وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، وغيرهما من النصوص. فالله جلَّ وعلا أمر عباده باللِّباس ولم يُعيِّن نوعاً منه يجب التزامه، وإنَّما الأمر في ذلك عائد إلى عادات الناس وأعرافهم، لكن جاءت الشريعة بجملة من الضوابط والشروط لا بدَّ من مراعاتها في اللباس، وقد بسطها أهل العلم في مؤلفات عديدة.

ومن ذلك أنَّه يحرم على المسلم أن يلبس من الثياب ما فيه

تشبُّه بالكفار، فقد ثبت عن النبي ﷺ النهيُ عن التشبه بهم في أحاديث عديدة. ففي الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَن تشبَّه بقوم فهو منهم**»[1]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ رأى عليه ثوبين معصفرين فقال: «**إنَّ هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها**»[2]. وهذا يدلُّ بالنص الصريح على حرمة التشبه بالكفار في اللباس وفي الهيئة وفي المظهر، كلبس البناطيل الضيِّقة التي تصف العورة وتحجمها، أو لبس الملابس التي تحمل شعارات الكفار كالصليب ونحوه، أو لبس الملابس التي تحمل الصور المحرَّمة لذوات الأرواح، أو لبس شيء من أزيائهم الخاصة ونحو ذلك.

كما يحرم على الرجال لبس الحرير، لما ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تلبسوا الحرير، فإنَّ من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[3]. وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «**إنَّما يلبس الحرير مَن لا خلاق له**»[4]، ورخَّص النبي ﷺ في لبسه لمَن به حكّة، كما في حديث أنسٍ رضي الله عنه[5].

ويحرم الإسبال في الثياب لحديث ابن عمر عنه ﷺ: «**مَن جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»[6]. وثبت من حديث أبي ذر أنَّ النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب**

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٣١)، وأحمد في المسند (٢/ ٥٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما. وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦١٤٩).

(٢) رواه مسلم (٢٠٧٧).

(٣) رواه البخاري (٥٨٣٤)، ومسلم (٢٠٦٩).

(٤) رواه البخاري (٥٨٣٥)، ومسلم (٢٠٦٩).

(٥) رواه البخاري (٥٨٣٩)، ومسلم (٢٠٧٦).

(٦) رواه البخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥).

أليم: المسبل إزارَه، والمَنَّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»[1].

ويحرم كذلك لباس الشهرة، وهو كل لبسة يكون بها مشتهراً بين الناس، كالخروج من عادة أهل بلده وعشيرته، فينبغي أن يلبس ما يلبسون لئلَّا يُشار إليه بالأصابع، إلَّا إذا كانت ألبستهم مخالفة للشريعة فليس له موافقتهم.

وكان أحبَّ الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص، كما في حديث أم سلمة[2]. والقميص ثوب مخيط بكُمَّين غير مفرج، وسبب حبِّه ﷺ للقميص؛ لأنَّه يستر الأعضاء أكثر من الإزار والرداء، ولأنَّه أقل مؤنة وأخف على البدن، وكان ﷺ يحبُّ اللون الأبيض في الثياب. فعن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**البسوا من ثيابكم البياض فإنَّها من خير ثيابكم، وكفِّنوا فيها موتاكم**»[3]. ولا يجوز اللون الأحمر البحت لما في حديث البراء بن عازم: «أنَّ النبي ﷺ نهى عن المياثر الحمر»[4]. أمَّا إذا كان ليس بالأحمر البحت أي فيه لون آخر فالصحيح جواز لبسه، لما ثبت عن البراء رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ مربوعاً، ولقد رأيته في حلَّة حمراء ما رأيت شيئاً قط أحسن منه»[5].

إلى غير ذلك من الأحكام العظيمة والتوجيهات السديدة التي جاءت بها الشريعة فيما يتعلَّق باللباس وضوابطه ممَّا يدل على كمال الشريعة وتمامها، والتي بها دون غيرها يكون سلامة الإنسان من فتنة الشيطان في شأن اللباس أو غيره من الأمور، وبالله وحده التوفيق.

---

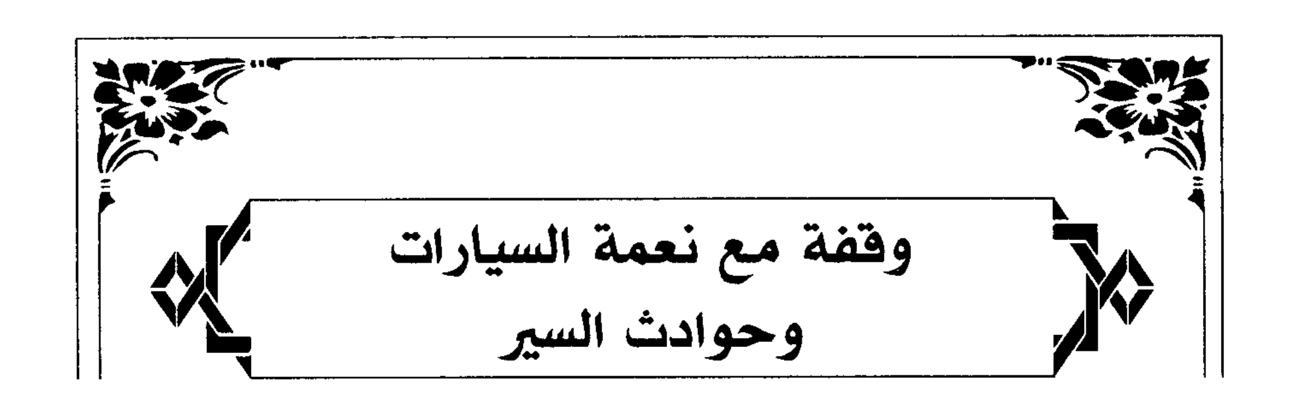
(١) رواه مسلم (١٠٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٢٥)، والترمذي (١٧٦٢). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٦٢٥).

(٣) رواه الترمذي (٩٩٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٢٣٦).

(٤) رواه البخاري (٥٨٣٨)، ومسلم (٢٠٦٦).

(٥) رواه البخاري (٣٥٥١)، ومسلم (٢٣٣٧).



وقفة مع نعمة السيارات وحوادث السير

لقد أمر الله بالشكر في كتابه ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، ووعد أهله بأحسن جزائه، وأخبر أنهم هم المنتفعون بآياته، وجعله سبباً للمزيد من فضله وعطائه، وحارساً وحافظاً لنعمه وآلائه، وأخبر سبحانه أن كفران النعم بوار وسببٌ لفرار النعم وزوالها.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وأصل الشكر وحقيقته الاعترافُ بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة؛ فمن لم يعرف النعمةَ بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرف النعمة ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها، ومن عرف النعمة والمنعم ولكن حجدها فقد كفرها ولم يشكرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقرَّ بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضَ به وعنه لم يشكرها، ومن عرفها وعرف المنعم بها وخضع له وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها. فالشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا

يستعملها فيما يكره، وهو يكون بالقلب واللسان والجوارح، يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ومحبة، وباللسان ثناءً واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً.

وإن من نعم الله على عباده ما هُيِّئَ لهم ويُسِّرَ من وسائل النقل التي يركبونها وينتقلون عليها من مكان إلى مكان، ويحملون عليها أمتعتهم وأثقالهم. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: ٥ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [المؤمنون: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤].

وإذا كانت النعمة على من قبلنا عظيمة بأن يسر لهم من الفلك والأنعام ما يركبون، فإن النعمة علينا في هذا الباب أكبر حيث يسر لنا وسائلَ النقل الحديثة الحسنةَ في مركبها، المريحةَ في تحركها وتنقلها، الجميلةَ في شكلها ومنظرها. ويسر مع ذلك طرقها وذلَّلَ سبلها وهيأ كلَّ الوسائل المحققةِ للراحة فيها، ينتقل الناس عليها من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد بلا مشقة أو تعب.

وإذا كان من قبلنا يكابدون في أسفارهم وهج الصحراء، وحرارة الجو، ولفح السموم والأعاصير، فإن الناس في هذا الزمان لا يشعرون بشيء من ذلك لأنهم يتنقلون في عربات مغلقة وأجواء مكيفة ومقاعد مريحة وثيرة. فلله ما أعظمها من نعمة وأجلَّها من منة

تستوجب شكر المنعم بها والمتفضلِ بتيسيرها، فالحمد لله على ما أولانا، ونسأله سبحانه أن يُوزِعَنا وإياكم شكر نعمه وأن يعيذنا من كفرانها، وأن يوفقنا لاستعمالها فيما يرضيه.

وإن من الظواهر المؤسفة المتعلقة بوسائل النقل وبخاصة السيارات كثرة الحوادث المروعة كثرة فاحشة، فأصبح المصابون بها ما بين كسير وجريح وميت، ليس بالأفراد فحسب، ولكن بالأفراد تارة وبالجملة تارة. وقد جاء في رصد إحصائي لعدد المتوفَّين والمصابين في حوادث السيارات خلال السنوات العشر الماضية أن عددَ المتوفَّين يزيد على خمسة وثلاثين ألف متوفَّى، وعددَ المصابين يزيد على ربع مليون، أي بمعدل قتيل وثمانية مصابين كلَّ ساعتين تقريباً، وهي أعداد مخيفة وأرقام مهيلة ومآس محزنة.

ولا شك أن وراء كثير من ذلك مخالفات وتجاوزات لم يَجْنِ أصحابُها ومسببوها منها سوى مرارة تلك المآسي ونكَدِ تلك الآلام؛ أرواح تهدر، ونفوس تروع، وأموال تضيع، نتيجة تلك الممارساتِ الخاطئة، والمخالفةِ لأنظمة المرور أو الخروج عليها.

إن الوعي في هذا الباب الخطير مطلوب من كل من يمتلك سيارة ينطلق فيها بين المسلمين ليراعي حقوقهم وليحفظ حرماتهم، ولئلا يعرض واحداً منهم إلى شيء من تلك الأخطار. وفي الحديث يقول ﷺ: «**إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام**»[1]، وفي الحديث الآخر يقول عليه الصلاة والسلام: «**كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) عن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهل راعَى أولئك المتجاوزون هذه الأحاديث وأمثالها؟ ليطمئن الناس في طرقاتهم، وليأمنوا في سيرهم، ولتقل تلك المآسي والأخطار بينهم. ومما ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن طاعة ولي الأمر بالتزام الأنظمة المرورية التي تخدم مصالح الناس وتنظم سيرهم، أمر واجب يأثم المسلم بتركه، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

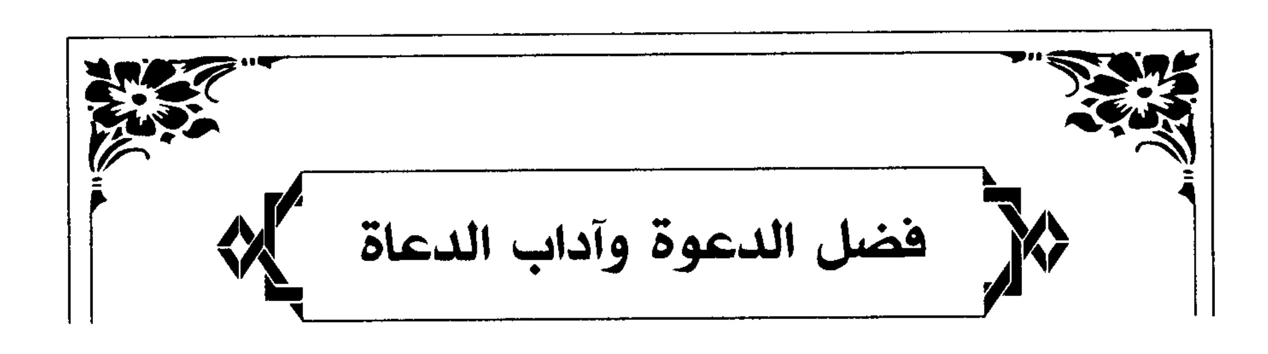
وإنا لنسأل الله جل وعلا أن يمن علينا جميعاً بالأمن والأمان والراحة والاطمئنان، وأن يجنبنا الشرور والأخطار، وأن يصلح لنا شأننا كله، فهو سبحانه خير مرجو وأفضل مأمول.

❦ ❦ ❦

أبيات لطيفة للشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قالها أول ما ركب السيارة مسافراً للحج:

يا راحلين إلى الحِمَى برواحلٍ	تطوى الفَلا والبِيد طيَّ المسرع
ليست تبول ولا تروث، وما لها	رُوحٌ تَحِنُّ إلى الربيع المُمْرِعِ
ما استولدت من نوقِنا، بل صُنعها	من بعض تعليم اللطيف المبدع
كم أوصلت دار الحبيب، وكم سرت	بحمولها نحو الديار الشُّسَّع[1]

(١) «الفتاوى السعدية» ص(٦٧٩).



فضل الدعوة وآداب الدعاة

إنَّ مِن نعم الله تعالى علينا: ما شرَّفنا به وأكرمنا بالانتساب إليه مِن سلوك سبيل الدعوة إليه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

فالدعوة إلى الله تعالى مهمة عظيمة؛ ووظيفة نبيلة؛ ومطلب جليل، والدعاة إلى الله هم السائرون على نهج الرسل؛ السالكون لسننهم؛ المقتفون لأثرهم، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فهذه بعينها هي المهمة التي انتصب لها الدعاة: البشارة بالخير؛ والنذارة مِن الشر، وإقامة الحجة على النَّاس؛ وإبانة السبيل لهم، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

والواجب على مَن أكرمه الله بهذه الوظيفة؛ وشرَّفه بسلوك هذا السبيل: أن يعرف لهذه النعمة قدرها؛ وأن يرعى لها حقَّها؛ وأن يحفظ لها مكانتها، وإنَّ مِن الرعاية لهذه النِّعمة: أن يحرص مَن وُفِّقَ لها على الإتيان بها على التَّمام والكمال؛ على قدر الطاقة والجهد، فلا يبتغي بهذا العمل إلا وجه الله والدار الآخرة، ويكون فيه مقتفياً لآثار الرسول ﷺ، سائراً على سننه، وهذان أهمُّ ما ينبغي أن يُحافظ عليه الداعي: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول ﷺ، وبدونهما لا قبول لأيِّ عمل مِن الأعمال.

إضافة إلى أنَّ الداعي ينبغي له أن يتحلى بمكارم الأخلاق؛ وجميل الآداب؛ وطيب الخصال؛ والصبر والحلم والرفق؛ والأناة والكرم؛ وسخاء النَّفس؛ والتَّواضع ولين الجانب، إلى غير ذلك مِن مكارم الأخلاق وخصال الخير؛ لتُؤتي دعوته أُكُلَها، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

كما أنَّ الداعي ينبغي له أن يكون قدوة حسنة للمدعوِّين في عبادته ومعاملته وأخلاقه، كما كان الرسول ﷺ كذلك لأمته، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإنَّ مِن أخطر ما يكون في الداعية أن يخالف النَّاس إلى ما ينهاهم عنه، وأن يغشى ما يحذِّرهم منه، فيبوء بنصيب مِن مقت الله وسخطه بحسب ذلك، والله تعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، ويقول سبحانه: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

كما أنَّ على الداعية أن يترفَّع بنفسه عن سفساف الأمور؛ ورديء الخصال؛ وسيئ الفِعال، كالحسد والغلِّ والكذب؛ والغيبة والنَّميمة؛ والفحش والتكبُّر ونحو ذلك.

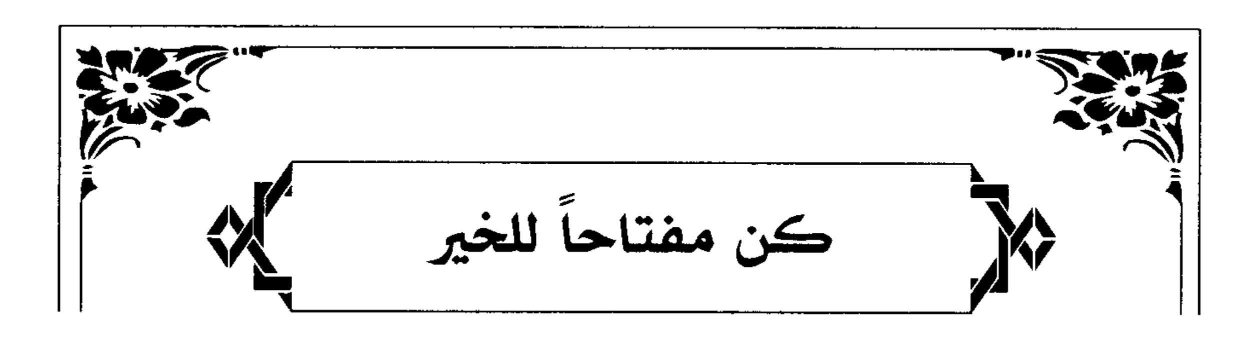
ومِن وصايا لقمان العظيمة لابنه: قوله كما أخبر الله تعالى في القرآن: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٧ ـ ١٩].

وعموماً فإنَّ الداعية إذا تذكَّر وقوفه يوم القيامة بين يدي الله

تعالى؛ ومحاسبة الله له على أعماله في هذه الحياة: تنبَّه تمام التَّنبُّه لهذا الأمر؛ وجدَّ في إصلاحه؛ وسعى السعي الحثيث لتكميله وتتميمه، ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٧].

وأسأل الله العظيم أن يتولانا جميعاً بتوفيقه، وأن يشملنا بعفوه ورحمته، وأن يهدينا سواء السبيل.





كن مفتاحاً للخير

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير. فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه»**(١).

ومن أراد لنفسه أن يكون من مفاتيح الخير مغاليق الشر أهلِ طوبى، فعليه بما يلي:

١ ـ الإخلاص لله في الأقوال والأعمال، فإنه أساس كلِّ خير وينبوع كلِّ فضيلة.

٢ ـ الدعاء والإلحاح على الله بالتوفيق لذلك، فإن الدعاء مفتاح لكلِّ خير، والله لا يرد عبداً دعاه ولا يخيب مؤمناً ناداه.

٣ ـ الحرص على طلب العلم وتحصيله، فإن العلم داع إلى الفضائل والمكارم حاجز عن الرذائل والعظائم.

٤ ـ الإقبال على عبادة الله ولا سيما الفرائض، وبخاصة الصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

٥ ـ التحلي بمكارم الأخلاق ورفيعها، والبعد عن سفساف الأخلاق ورديئها.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٩٤).

٦ ـ مرافقة الأخيار ومجالسة الصالحين، فإن مجالسهم تحفُّها الملائكة وتغشاها الرحمة؛ والحذر من مجالس الأشرار والطالحين، فإنها متنزل الشياطين.

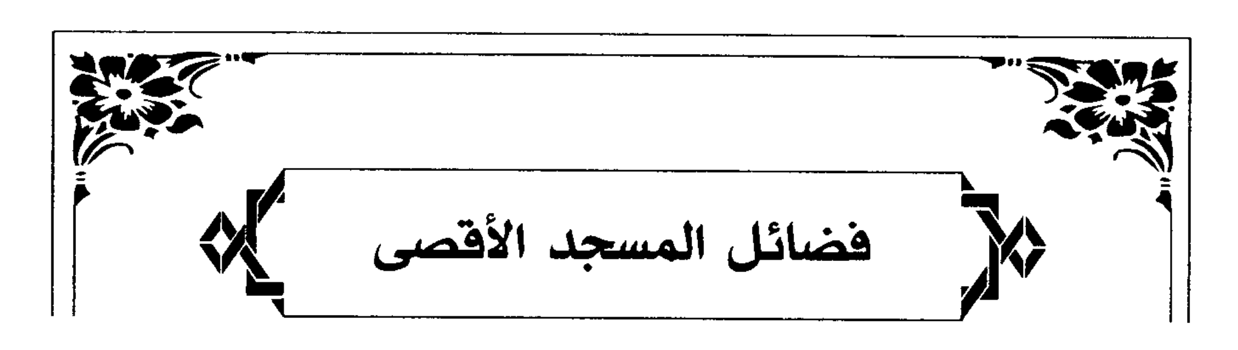
٧ ـ النصح للعباد حال معاشرتهم ومخالطتهم، بشغلهم في الخير وصرفهم عن الشر.

٨ ـ تذكر المعاد والوقوف بين يدي ربِّ العالمين، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

٩ ـ وعماد ذلك كلِّه رغبة العبد في الخير وفي نفع العباد، فمتى كانت الرغبة قائمة والنية مصممة والعزم أكيداً، واستعان بالله في ذلك وأتى الأمور من أبوابها، كان ـ بإذن الله ـ من مفاتيح الخير مغاليق الشر.

والله يتولى عباده بتوفيقه، ويفتح على من يشاء بالحق وهو خير الفاتحين.





فضائل المسجد الأقصى

يزداد ألم المسلمين وأسفهم يوماً بعد يوم على الحال التي آل إليه المسجد الأقصى، من تسلط اليهود المجرمين عليه، وانتهاكهم لحرمته، واعتدائهم على قدسيته ومكانته، وارتكابهم فيه ومع أهله أنواعاً كثيرة من التعديات والإجرام.

والمسجد الأقصى مسجد عظيم مبارك له مكانة عالية في نفوس المؤمنين، ومنزلة رفيعة في قلوبهم، فهو مسجد قد خص في الكتاب والسنة بميزات كثيرة وخصائص عديدةٍ وفضائل جمة، تدل على رفيع مكانته وعظيم قدره.

فمن فضائل المسجد الأقصى أنه أحد المساجد الثلاثة المفضلة التي لا يجوز شد الرحال بنيَّة التعبد إلا إليها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثةِ مساجدَ: المسجدِ الحرامِ، ومسجدِ الرسولِ ﷺ، ومسجدِ الأقصى**»[(١)].

ومن فضائله أنه ثاني مسجدٍ وضع في الأرض؛ فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أولَ؟ قال: «**المسجد الحرام**». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**». قلت: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصلِّهْ، فإن الفضل فيه**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

ومن فضائله أنه قبلة المسلمين الأولى قبل نسخ القبلة وتحويلها إلى الكعبة؛ فعن البراء رضي الله عنه قال: صلَّينا مع النبيِّ ﷺ نحوَ بيتِ المقدسِ ستةَ عشرَ ـ أو سبعةَ عشرَ ـ شهراً، ثم صرفَهُ نحوَ القبلةِ[1].

ومن فضائله أنه مسجد في أرض مباركة، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]. وقد قيل: لو لم تكن لهذا المسجد إلا هذه الفضيلة لكانت كافية.

وأرضه هي أرض المحشر والمنشر. فعن ميمونة مولاة النبي ﷺ قالت: قلت: يا رسول الله، أفتنا في بيت المقدس. قال: «**أرضُ المحشَرِ والمنشَرِ...**»[2].

ومن فضائله أنه مسرى رسول الله ﷺ، ومنه عرج به إلى السماء. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه**». قال: «**فركبت حتى أتيت بيت المقدس**»، قال: «**فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء**». قال: «**ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن؛ فقال جبريل: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء**»[3].

ومن فضائله أن الصلاة فيه تضاعف؛ فعن أبي ذر رضي الله عنه قال:

---

(١) رواه البخاري (٤٤٩٢)، ومسلم (٥٢٥).

(٢) رواه ابن ماجه (١٤٠٧)، وصحّح الألباني رحمه الله هذا القِسْم في «تخريج أحاديث فضائل الشام» رقم (٤).

(٣) رواه مسلم (١٦٢).

تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل؟ أمسجد رسول الله ﷺ أم بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «**صلاة في مسجدي أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلَّى هو، وليوشكن أن يكون للرجل مِثلُ شَطَن فرسه من الأرض، حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعاً**»، قال: أو قال: «**خير له من الدنيا وما فيها**»[1].

وهذا علم من أعلام نبوته ﷺ، حيث بيَّن ما سيؤول إليه المسجد الأقصى مع تعلُّقِ قلوب المسلمين به، وأن مؤامرات الأعداء على المسجد الأقصى ستزداد، حتى إن المؤمن ليتمنى أن يكون له موضع صغير يطل منه على المسجد الأقصى، ويكون ذلك أحبَّ إليه من الدنيا وما فيها.

ومن فضائله ما ورد في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس، سأل الله ثلاثاً: حكماً يصادف حكمه، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وألا يأتي أحد لا يريد إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**». فقال النبي ﷺ: «**أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون أعطي الثالثة**»[2].

إنه لا يخفى على أيِّ مسلم ما يعانيه المسلمون في فلسطين من آلام وقتل وتشريد، بسبب توالي الاعتداء الغاشم عليهم من اليهود المعتدين الغاصبين، ولا يخفى أيضاً حاجة المسلمين في فلسطين وضرورتهم إلى الكساء والطعام والدواء.

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٥٠٩) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه النسائي (٦٩٣)، وابن ماجه (١٤٠٨). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (١١٧٨).

ولذا فإن من الواجب على المسلمين المسارعةَ إلى نجدتهم ومدَّ يد المساعدة لهم، والوقوفَ معهم في محنتهم حتى يتمكنوا من مقاومة عدوهم الذي يملك العدة والعتاد. والله جل وعلا يثيب المؤمن على ما يقدم لإخوانه ثواباً عاجلاً، وثواباً أخروياً يجد جزاءه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصَت صدقةٌ من مالٍ...**»[١].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «... **والصدقَةُ تطفئُ الخطيئةَ كما يطفئُ الماءُ النارَ**»[٢].

فجودوا عليهم أيها المسلمون بما أعطاكم الله، واعطفوا عليهم يبارك لكم في مالكم ويخلف عليكم بخير ويضاعف لكم الأجر والثواب.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «... **ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته**»[٣].

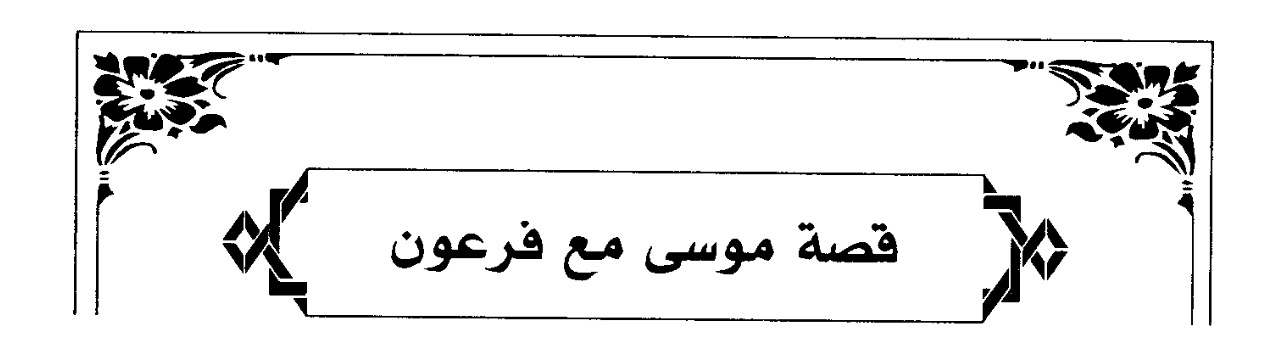
وأن نكثر لهم من الدعاء بأن يجبر ضعفهم ويقوي شوكتهم، وأن يرد كيد اليهود المعتدين في نحورهم، وأن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، وأن يطهر المسجد الأقصى من أيدي الظلمة المعتدين والبغاة الغاصبين إنه سميع مجيب.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢١١٠).

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).



قصة موسى مع فرعون

إن من القصص العجيب الذي أعاده الله في القرآن وثناه قصة موسى عليه السلام مع فرعون، لكونها مشتملةً على حكم عظيمة وعبر بالغة وعظات مؤثرة، وفيها نبؤُهُ سبحانه مع المؤمنين والظالمين بإعزاز المؤمنين ونصرهم، وإذلال الكافرين وخذلانهم ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝﴾ [القصص: ٢ - ٤].

ولما أراد الله جل وعلا إنقاذ هذا الشعبِ من ظلم فرعون وطغيانه وتكبره وعدوانه، أجرى من الأسباب العظيمة ما لم يشعرْ به فرعونُ ولا أولياؤه ولا أعداؤه، حيث أمر سبحانه أم موسى عليه السلام أن تضع وليدها موسى في تابوت مغلق ثم تلقيه في اليم، ووعدها تبارك وتعالى بحفظه وبشَّرها بأنه سيردُّه إليها وأنه سيكبرُ ويسلمُ من كيدهم، وأنه سبحانه سيجعله من المرسلين ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. ففعلت ما أُمرت به، وساق الله هذا التابوت وبداخله موسى عليه السلام يتقاذفه الموج إلى أن وصل إلى مكان قريب من فرعون وآله ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ [القصص: ٨]. وفي هذا أن الحذر لا ينفع من القدر، فإن الذي خاف منه فرعون وقتّل أبناء بني إسرائيل لأجله قيَّض الله أن ينشأ في بيت فرعون، ويتربى تحت يده وعلى نظره وفي كفالته. ومن

لطف الله بموسى وأمه أن منعه من قبول الرضاعة من ثدي أي امرأة، فأخرجوه إلى السوق لعلهم يجدون من يقبل منها الرضاع، فجاءت أخته وهو بتلك الحال ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]؛ فاشتملت مقالتها هذه على الترغيب في أهل هذا البيتِ، وبيانِ ما هم عليه من تمام الحفظ وحسنِ الكفالة، ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٣].

ولما بلغ عليه السلام أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً، حكماً يعرف به الأحكام الشرعية والفصل بين الناس وعلماً كثيراً.

ثم جرت أحداث منها قتل موسى عليه السلام للقبطي، وتَشاورَ ملأُ فرعون مع فرعون على قتله واجتمع رأيهم على ذلك، ويَبْلُغُ موسى الخبرُ فيخرجُ من مصر ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، ودعا الله ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]. وأكرمه الله جل وعلا في رحلته تلك بالتزوُّج من امرأة صالحة، ثم إنه سبحانه أكرمه بأعظم كرامة وحباه بأعظم نعمة فجعله من المرسلين ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وأيّده تبارك وتعالى بالحجج الباهرة والبراهين الظاهرة ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢]. ويأمرُه تبارك وتعالى بالتوجه إلى فرعون لدعوته، وأمَره أن يقول له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى. ويطلب موسى من الله أن يعينه على ما حمله وأن يسدده فيما وكل إليه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن

﴿يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٤]، فأجابه الله فيما سأل ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

ويأتي الأمر الإلهي إلى موسى وأخيه عليهما السلام لإنفاذ هذه المهمَّة وأداء هذا المطلب العظيم ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طـه: ٤٢ ـ ٤٨] ويتوجه موسى وأخوه هارون عليهما السلام بكل شجاعة وقوة وثبات، لتبليغ رسالة الله وتنفيذ أمره سبحانه.

لقد أرسل الله موسى عليه السلام بالآياتِ والسلطانِ المبين إلى فرعون الذي تكبر على الملأ وقال: أنا ربكم الأعلى، فجاءه موسى بالآيات البينات ودعاه إلى توحيدِ رب الأرض والسماوات، فقال فرعون منكراً وجاحداً: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]. فأنكر الربَّ العظيمَ الذي قامت بأمره الأرض والسماوات، وكان له آية في كل شيء من المخلوقات، فأجابه موسى ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٤]. ففي السماوات والأرض وما بينهما من الآيات ما يوجب الإيقان للموقنين، فقال فرعون لمن حوله ساخراً ومستهزئاً بموسى: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]. فذكَّره موسى بأصله وأنه مخلوق من العدم، وصائر إلى العدم كما عُدم آباؤه الأولون فقال موسى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦]. وحينئذ بهت فرعون فادعى دعوى المكابر المغبون فقال: ﴿إِنَّ

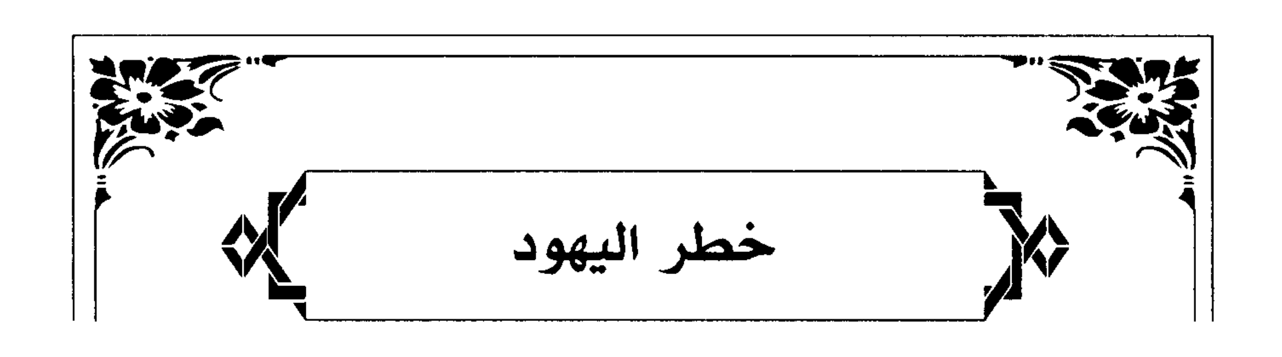
﴿رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، فطعن بالرسول والمرسِل فرد عليه موسى ذلك وبيَّن له أن الجنون إنما هو إنكارُ الخالقِ العظيم فقال: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٨]. فلما عجز فرعون عن ردِّ الحق لجأ إلى التهديد والتوعد بالسجن فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وما زال موسى يأتي بالآيات كالشمس، وفرعونُ يحاول بكل جهده ودعاياته أن يقضي عليها بالرد والطمس حتى قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٦].

وكان من قصة إغراقهم أن الله أوحى إلى موسى أن يسري بقومه ليلاً من مصر فاهتمَّ لذلك فرعون اهتماماً عظيماً، فأرسل في جميع مدائن مصر أن يحشر الناس للوصول إليه لأمر يريده اللهُ، فجمع فرعونُ قومه وخرجوا في إثر موسى متجهين إلى جهة البحر الأحمر ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١] البحرُ من أمامنا فإن خضناه غرقنا، وفرعونُ وقومُه خلفنا، فإن وقفنا أُدركنا؛ فقال موسى: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢]. فلما بلغ البحرَ أمره الله أن يضربه بعصاه فضربه فانفلق البحرُ اثني عشر طريقاً، وصار الماء السيال بين هذه الطرق كأطواد الجبال؛ فلما تكامل موسى وقومُه خارجين، وتكامل فرعون بجنوده داخلين، أمر الله البحر أن يعود إلى حاله فانطبق على فرعون وجنوده فكانوا من المغرقين. فانظروا ـ رحمكم الله ـ إلى ما في هذه القصة من العبر

والآيات، كيف كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل خوفاً من موسى؛ فتربى موسى في بيته وتحت حجر امرأته، وكيف قابل موسى هذا الجبارَ العنيد مصرحاً معلناً بالحق هاتفاً به: ألا إن ربكم هو اللهُ ربُّ العالمين فأنجاه الله منه، وكيف كان الماء السيال شيئاً جامداً كالجبال بقدرة الله، وكان الطريق يبساً لا وحل فيه ولا زلق؟! وكيف أهلك اللهُ هذا الجبارَ العنيد بمثل ما كان يفتخر به، فقد كان يفتخر بالأنهار التي تجري من تحته، فأُهلك بالماء. ولا شك أن ظهور آيات الله في مخلوقاته نعمة كبرى يستحق عليها الحمدَ والشكرَ، خصوصاً إذا كانت في نصر أولياء الله وحزبه، ودحر أولياء الشيطان وحزبه.
ولذلك لما قدم النبي ﷺ المدينة، وجد اليهود يصومون اليوم العاشر من هذا الشهر شهرِ المحرم ويقولون: إنه يوم نجَّى الله فيه موسى وقومه، وأهلك فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فقال النبي ﷺ: «**فنحن أحق بموسى منكم**»، فصامه وأمر الناس بصيامه[(١)]. وسئل النبي ﷺ عن صيامه فقال: «**أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله**»[(٢)]. فينبغي للمسلم أن يصوم يوم عاشوراء وكذلك اليوم التاسع، لتحصل بذلك فضيلة صيامه ومخالفة اليهود التي أمر الرسول ﷺ بها.



(١) رواه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) رواه مسلم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.



خطر اليهود

إن من يتأمل التاريخ على طول مدة ويتأمل في أحوال الأمم وأخلاقِها ومعاملاتِها، يجد أن أسوأَ الأمم خلقاً وأشرَّها معاملة أمةُ اليهود، تلك الأمة الغضبية الملعونة أمةُ الكذب والطغيان والفسوق والعصيان والكفر والإلحاد، أمةٌ ممقوتة لدى الناس لفضاضة قلوبهم وشدة حقدهم وحسدهم، ولعظم بغيهم وطغيانهم، أهل طبيعة وحشية وهمجية لا يباريهم فيها أحد، كلما أحسوا بقوة ونفوذ وتمكن وقدرة هجموا على من يعادونه هجوم السَّبُعِ على فريسته، لا يرقبون في أحد إلّاً ولا ذمة ولا يعرفون ميثاقاً ولا عهداً. لا يعرف في الأمم جميعها أمةٌ أقسى قلوباً وأغلظ أفئدة من هذه الأُمة، قد التصق بهم الإجرامُ والظلمُ والعدوان والجور والبهتان من قديم الزمان، يقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

ومن قسوة قلوب هؤلاء أنهم قتلوا بعض أنبياء الله الذين جاؤوا يحملون إليهم الهدى والصلاح والسعادة والفلاح، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ

إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: ٢١]. وهذه القسوة التي وصمهم الله بها في القرآن، ملازمة لهم على مر الأجيال والعصور إلى زماننا هذا.

ثم هم مع ذلك أهل مكر وخديعة وخبث وكيد، وقد عانَى المسلمون الأُوَلُ من صفة اليهود هذه الشيء الكثير، ولا يزال المسلمون يعانون الويل من جراء مكر اليهود وكيدهم، والله يقول: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقد دأب اليهود من قديم الزمان على الغدر والخيانة ونقض العهود والوعود، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال: ٥٥ ـ ٥٦].

لقد عاش اليهود طوال حياتهم بؤرة فساد في المجتمعات وأساس كل منكر وفحشاء ينشرون الرذيلة ويشيعون الفساد، وقد كانوا عبر التاريخ مصدراً للمنكر والفحشاء، فهم أصحاب بيوت الدعارة في العالم وناشرو الانحلال الجنسي في كل مكان، يبتزُّون أموال الشعوب ثم يسخرونها في إشاعة الرذيلة بينهم ليحطموا بذلك قيمهم ويخلخلوا إيمانهم ويضعفوا قوتهم، وليكونوا بذلك فريسة سهلة لهم، فما أقبحه من مكر.

إنَّ عداءَ اليهود للإسلام عداءٌ قديمٌ منذ فجر الإسلام الأول، وعداءَهم وحقدَهم على أهله معروف لدى الخاص والعام في قديم الزمان وحديثه، لأن الإسلام عرَّى حالهم وكشف أمرهم وفضح

مخازيهم وأظهر قبائحهم وشنائعهم، فبات أمرهم معلناً بعد أن كان سراً وبادياً لكل أحد بعد أن كان خفياً.

وجاءت آيات القرآن الكريم آيةً تلو الأخرى معرِّية أمر هؤلاء مجلِّية حقيقة أمرهم كاشفة كل مكرهم وكيدهم وخداعهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥].

لا غرابة أن كان عداءُ اليهود للإسلام شديداً، فالإسلام جاء هادماً لكل ما لديهم من زيف وبهتان وباطل، ومناقضاً لكل ما عندهم من جنوح وانحراف وضلال.

إن الإسلام يدعو إلى الإيمان والتوحيد والطاعة والإخلاص، واليهود يدعون إلى الكفر والإلحاد والتكذيب والإعراض.

إن الإسلام يدعو إلى مُثُلٍ عليا وقِيَم رفيعة وإلى الرحمة والخير والإحسان، بينما اليهود يدعون إلى القسوة والإجرام والوحشية والعدوان والظلم والبهتان.

الإسلام يدعو إلى الحياء والستر والحشمة والعفاف. واليهود يدعون إلى الرذيلة والفساد والمنكر والبغي.

الإسلام يحفظ الحق ويحترم المواثيق ويحرم الظلم، واليهود لا يعرفون حقاً ولا يحفظون عهداً ولا ميثاقاً ولا يتركون الظلم والعدوان.

الإسلام يحرم قتل النفس بغير حق ويحرم السرقة والزنى، واليهود يستبيحون سفك دماء غير اليهود وسرقة أموالهم وانتهاك أعراضهم.

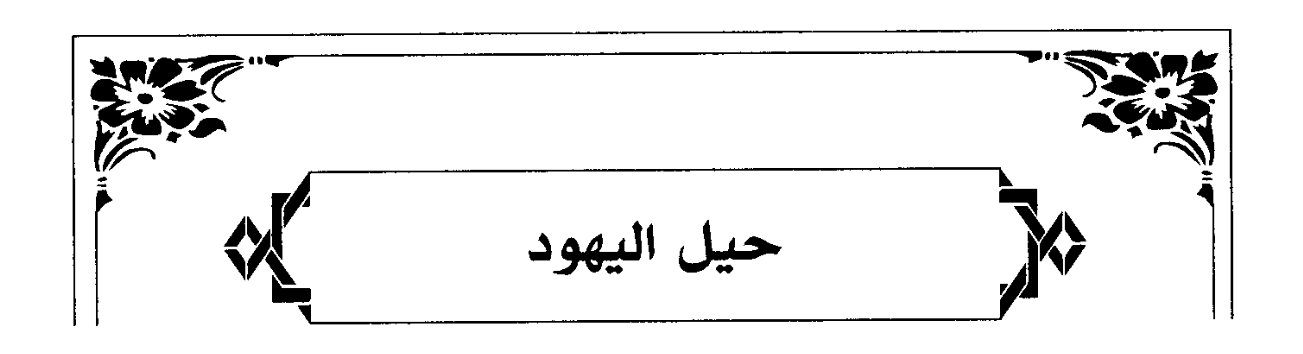
ورغم كلِّ هذا الضلال الذي هم فيه، فإنهم يعتقدون في أنفسهم أنهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن أرواحهم متميزة عن بقية أرواح البشر بأنها جزء من الله، وأنه لو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما نزلت الأمطار ولا وجدت الخيرات.

ويعتقدون فيمن سواهم أنهم أشبهُ بالحمير، وأن الله خلقهم على صورة الإنسان ليكونوا لائقين لخدمتهم، ألا شاهت وجوه الأخسرين، ولعنة الله على المجرمين.

يجب أن ندرك جميعاً أن عدوان اليهود على المسلمين في فلسطين ليس مجرد نزاع على أرض، وأن ندرك أن قضية فلسطين قضيةٌ إسلامية يجب أن يُؤَرِّقَ أمرُها بالَ كلِّ مسلم، ففلسطين بلد الأنبياء، وفيها ثالث المساجد الثلاثة المعظمة، وهي مسرى رسول الله ﷺ وفيها قبلةُ المسلمين الأولى، وليس لأحد فيه حق إلا الإسلامُ وأهله، والأرضُ لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ويجب أن ندرك أن تغلب هذه الشرذمة المرذولة والفئة المخذولة وتسلطَهم على المسلمين، إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي وإعراضِ كثير من المسلمين عن دينهم الذي هو سبب عزهم وفلاحهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]. فلا بد من عودة صادقة وأوبة حميدة إلى الله جل وعلا، فيها تصحيحٌ للإيمان، وصلةٌ بالرحمٰن، وحفاظٌ على الطاعة والإحسان، وبعدٌ وحذرٌ من الفسوق والعصيان، لينال المؤمنون بذلك العز والتمكين والنصر والتأييد.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٥ ـ ٥٦].



حيل اليهود

إن القرآن الكريم كتاب هداية وبيان، ونصح وإرشاد، فيه نبأ ما قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا. من عمل به أجر ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

وإن من دلالات القرآن القويمة وهداياته الكريمة كشفَه لسبيل المجرمين، وبيانه لحال المغضوب عليهم والضالين، ليعرفها المؤمنون فيجتنبوها، ولتنكشف لهم حالهم فيتقُوها وليستبين لهم عدوهم فيحذروه، يقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥] أي ليتضح طريقهم وينكشف أمرهم، وتستبين حالهم فيحذرهم المؤمنون.

وقد جاء في دلالات القرآن الكريم وهداياته أن أشد الناس كيداً للمؤمنين، وأعظمَهم عداوةً لهم، وأخبثهم سوءاً ومكراً وتربصاً وكرهاً هم اليهود، تلك الأمةُ المقيتةُ الغضبية التي نالت ـ لسوء فعالها وخبث أعمالها ـ غضبَ الله ولعنه ومقته وسَخَطَه فهم أمة غضبية ملعونة وشرذمة ممقوتة مسخوطة، لما فيهم من الشر المتأصل والخبث المتراكم والفساد الكبير. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠]، ويقول تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

[المائدة: ٨٠]، ويقول تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ٩٠]، وقد وصفهم الله في القرآن الكريم بأن قلوبهم قاسية ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ [البقرة: ٧٤].

لما عرضت عليهم التوراة وهي كلام الله ووحيُه وتنزيله رفضوها، وامتنعوا من أن يقبلوها، فأمر الله جبريل عليه السلام أن يقلع جبلاً من أصله من الأرض على قدرهم ثم رفعه فوق رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها ألقيناه عليكم، فقبلوها كرهاً؛ قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: ٦٣ ـ ٦٤].

ولما دعاهم موسى عليه السلام إلى الإيمان بالله ووحيه، امتنعوا من ذلك وقالوا: لا نؤمن حتى نرى الله جهرةً بأعيننا، فأنزل الله ناراً من السماء فقتلهم بها بسبب ذنوبهم، ثم أحياهم من بعد موتهم لعلهم يشكرون؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦].

ومن مخازيهم أنهم اتخذوا العجل معبوداً لهم من دون الله مع أنهم قد شاهدوا ما أحل الله بالمشركين من العقوبة الأليمة والأخذة الرابية، ونبيهم حي بينهم لم يمت، وقد شاهدوا بأعينهم صانع العجل يصنعه ويصوغه ويصليه النار، ويدقه بالمطرقة ويسطو عليه بالمبرد،

ويقلبه بيديه ظهراً لبطن، ومع ذلك كله عبدوه من دون الله، ولم يكتفوا بذلك حتى جعلوه إلهاً لموسى عليه السلام زوراً وبهتاً ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة: ٥١ ـ ٥٢].

فهم مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم مرةً يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهاً غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: لا نصدقك حتى نرى الله جهرة. ولما أنجاهم الله من فرعون وسلطانه وظلمه، وفرق بهم البحر، وأراهم الآيات والعجائب ونصرهم وآواهم؛ فلما دعاهم نبيهم إلى القتال، امتنعوا من ذلك وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ومن شنائعهم أنهم قيل لهم وهم مع نبيهم والوحي ينزل عليه من الله: ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨] ـ والقرية بيت المقدس ـ فأمروا أن يدخلوا على هذه الهيئة من التذلل والخضوع لله، فأبوا إلا العناد واالكبر فدخلوا مع الباب على أدبارهم يرجعون إليه القهقرى، وقالوا: حنطة أي حبة من شعير؛ قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٩]. ومن مخازيهم أنهم كانوا يقتلون الأنبياء الذين لا تُنال الهدايةُ إلا على أيديهم، ويتخذون أحبارهم أرباباً من دون الله، ورموا نبي الله عيسى وأمه بالعظائم وادعوا أنهم قتلوه ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٥٨].

ومن مخازيهم أنهم نسبوا إلى الله ما لا يليق، ووصفوه بما يتنزَّهُ عنه سبحانه، ومن ذلك قولُهم: إن الله تعب واستراح لما خلق السماوات والأرض، فأنزل الله في تكذيبهم قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، أي من تعب.

ومن ذلك قولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء، فأنزل الله قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١]. وقالوا أيضاً: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

ثم هم مع هذا الكفر العظيم والبهتان المبين يدَّعون لأنفسهم الجنة، ويدَّعون أنهم أفضل خلق الله وأنهم شعبه المختار ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ [المائدة: ١٨].

ومما ينبغي أن نعلمه هنا أن اليهود من بعد محاولتهم قتل المسيح عليه السلام وصيانة الله له من ذلك، وأمرهم لا يزال في سفال ونقص إلى أن قطَّعهم الله في الأرض أمماً ومزَّقهم كل ممزَّق وسلبهم عزهم وملكهم، فلم يقم لهم بعد ذلك ملك إلى أن بعث الله

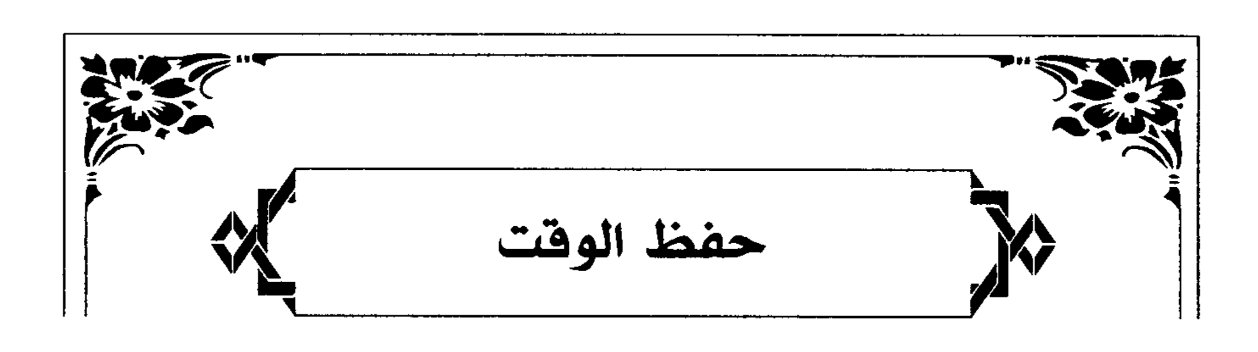
محمداً ﷺ، فكفروا به وكذبوه فأتم الله عليهم غضبه، ودمرهم غاية التدمير، وألزمهم ذلاً وصغاراً لا يرفع عنهم إلى أن ينزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان فيستأصل شأفتهم ويقتل بقيتهم، ويطهِّر الأرض منهم ومن عُبّاد الصليب.

فهذا بعض ما جاء في القرآن الكريم من حال هذه الأمة الغضبية الملعونة، ليعرف المسلمون شيئاً من تاريخ هذه الأمةِ الأسود وحياتهم المظلمةِ المليئةِ بالكفر والعدوان والظلم والبهتان، وأنهم لا تُؤمَنُ بوائقهم ولا تنتهي جرائمهم ولا يسلمون في كل وقت وحين من البغي والعدوان، وليعرف المسلم قدر نعمة الله عليه بهذا الدين الحنيف، وما منَّ الله عليه من نعمة العلم والإيمان. فلله الحمد أولاً وآخراً.

إن المؤمن في كل أحواله وجميع شؤونه في شدته ورخائه وسرائه وضرائه، لا مفزع له إلا إلى الله ولا ملجأ له إلا إلى ربه وسيده ومولاه.

فيا إلـٰهَنا إليك المشتكى وأنت حسبنا، يا من يجيب المضطر إذا دعاه ويجبر الكسير إذا ناداه ويفرج هم المهموم إذا ذل له ورجاه. إلـٰهَنا إن اليهود تسلطوا على إخواننا المسلمين في فلسطين قتلاً وتشريداً، وعلى بيوتهم هدماً وتخريباً، وعلى حرماتهم هتكاً وإفساداً؛ فكم من بيوت هدمت، وكم من أعراض هتكت، وكم من نساء رمِّلت، وكم من دماء أريقت، وكم من أطفال يتِّموا؟!

لقد تفاقم من اليهود الطغيان وتزايد السطو والإجرام، وعظم الجبروت والعدوان. إلـٰهَنا يا من النصر والعز منه يستمنح، يا من أبوابه وخزائنه لمن دعاه تفتح، يا مزلزل عروش الظالمين، يا قاصم ظهور الجبارين، يا مبطل كيد المجرمين، اللهم عليك باليهود المعتدين، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم.



حفظ الوقت

إنَّنا نستقبل في هذه الأيام الإجازة الصيفية، وذلك بعد إمضاء عام دراسي كامل في الجد والمذاكرة والبذل والتحصيل على تفاوت في الهمم وتباين في العزائم، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الأيام ـ كما يقال ـ: هو ما الذي ينبغي على طالب العلم الحريص والمسلم الجاد أن يفعله في هذه الإجازة المقبلة؟ وعدد أيامها مائة يوم تقريباً، وهو وقت طويل وأيام عديدة، ولحظات عزيزة ستمر وتذهب سريعاً، أيناسب أو يليق بالمسلم أن يتركها تذهب وتضيع دون أن يغتنمها في الخير، ودون أن يتزود فيها بزاد التقوى؟ وهل أيام الإجازة ليست معدودة في حياة الإنسان وعمره، فيتركها تذهب وتنصرم بدون تحصيل لفائدة أو اغتنامٍ لها في طاعة أو خير؟ أأيام الإجازة ليست أيام طلب للعلم وتحصيل للإيمان وتزود بالتقى والصلاح؟! مائة يوم من حياتنا ستمر، وأوقات غالية ستذهب فما نحن صانعون فيها؟ إن وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم أو العذاب الأليم، وهو يمر مر السحاب. لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار وتقريب الآجال، صحبا قبلنا نوحاً وعاداً وثمودَ وقروناً بين ذلك كثيراً فأصبح الجميع قد قَدِمُوا على ربهم ووردوا على أعمالهم وتصرمت أعمارهم، وبقي الليلُ والنهار غضَّيْن جديدَيْن في أمم بعدهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢]. ينبغي للمؤمن أن يتخذ من مرور الليالي والأيام عبرة

وعظة، فإن الليل والنهار يُبليان كلَّ جديد ويقربان كل بعيد، ويطويان الأعمار، ويشبان الصغار، وَيفنيان الكبار، وهذا كله مشعر بتولي الدنيا وإقبال الآخرة.

قال علي رضي الله عنه: إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: إن الدنيا ليست بدار قراركم، كتب الله عليها الفناء، وكتب الله على أهلها الظعن [أي: الارتحال]. فكم من عامر موثق، عن قليل يَخْرَب، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا منها الرِّحْلَة بأحسنِ ما بحضرتكم من النُّقْلَة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

إن العبد في هدم لعمره منذ خرج من بطن أمه، بل هو كما قال الحسن البصري رحمه الله: أيام مجموعة أي الإنسان فكلما ذهب يوم ذهب بعض الإنسان وجزء منه، اليوم منه يهدم الشهر، والشهر يهدم السنة، والسنة تهدم العمر، وكل ساعة تمضي من العبد فهي مُدنية له من الأجل. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي. وهذا من شدة حرصه على الوقت، قال الحسن رحمه الله: أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم.

ولهذا فإن من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أدّاه، أو مجد أثله، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه وظلم نفسه وظلم يومه.

إن الليالي والأيام هي رأس مال الإنسان في هذه الحياة ربحها الجنة وخسرانها النار، السنة شجرة، والشهور فروعها، والأيام

أغصانها والساعات أوراقها، والأنفاس ثمارها. فمن كانت أنفاسه في طاعة الله، فثمرةُ شجرته طيبةٌ مباركة، ومن كانت أنفاسه في معصيةٍ فثمرته مر وحنظل.

لقد تكاثرت النصوص عن النبي ﷺ في بيان أهمية الوقت والحث على اغتنامه وعدم إضاعته، وبيان أن العبد مسؤول عنه يوم القيامة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: **«اغتنِمْ خمساً قبلَ خمسٍ: شبابَكَ قبلَ هرمِكَ، وصحتَكَ قبلَ سقمِكَ، وغناكَ قبلَ فقرِكَ، وفراغَكَ قبلَ شغلِكَ، وحياتَكَ قبلَ موتِكَ»**[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: عن النبيِّ ﷺ قال: **«لا تزولُ قدمُ ابنِ آدمَ يومَ القيامةِ من عندِ ربِّه، حتى يُسألَ عن خمسٍ: عن عمُرِهِ فيمَ أفناهُ، وعن شبابِهِ فيمَ أبلاهُ، ومالِهِ من أينَ اكتسبَهُ وفيمَ أنفقَهُ، وماذا عملَ فيما علمَ؟»**[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ: **«نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ»**[3].

قال بعض أهل العلم: إن من استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السَّقَم.

---

(١) رواه الحاكم (٤/٣٠٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٠٧٧).

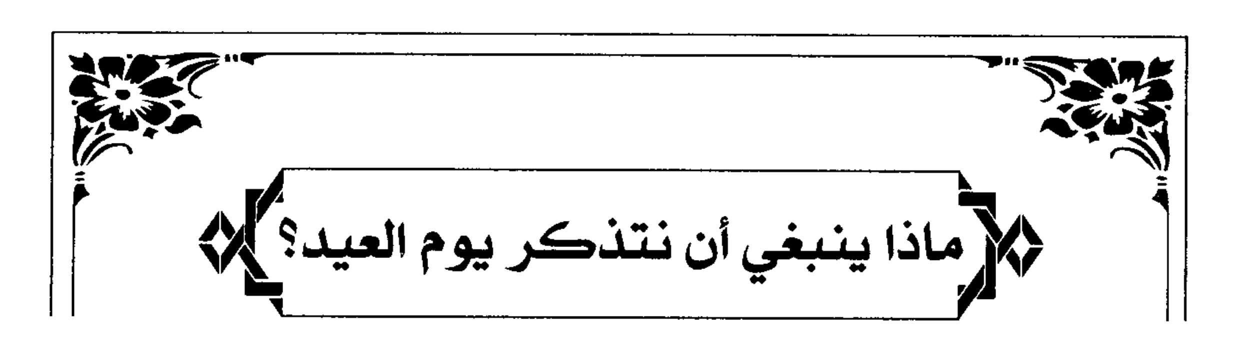
(٢) رواه الترمذي (٢٤١٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٦٩).

(٣) رواه البخاري (٦٤١٢).

ومما يُؤثَر عن السلف قولُهم: من علامة المقت إضاعة الوقت. بل قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

والواجب على المسلم ألا يغتر بالدنيا فإنَّ صَحِيحَها يَسْقَم، وجديدها يبلى ونعيمها يفنى وشبابها يهرم، وهو فيها في سير إلى الدار الآخرة، الآجال منقوصة والأعمال محفوظة والموت يأتي بغتة، فمن زرع خيراً فيوشك أن يحصد ثوابه وأجره، ومن زرع شراً فيوشك أن يحصد ندامة وحسرة، ولكلِّ زارع ما زرع.





ماذا ينبغي أن نتذكر يوم العيد؟

أيها الإخوة المؤمنون إننا نعيش يومنا هذا فرحةً عظيمةً بعيد الفطر المبارك، إنَّه عيدٌ امتلأت القلوب به فرحاً وسروراً، وانشرحت الصدور به لذة وحبوراً، قد خرج الناس في هذا اليوم العظيم لربهم حامدين ومعظمين ومكبرين، ولنعمته بإتمام الصيام والقيام مغتبطين وشاكرين، ولخيره وثوابه وأجره مؤملين وراجين، يسألون ربَّهم الكريم أن يتقبل أعمالهم، وأن يتجاوز عن سيئاتهم، وأن يعيد عليهم عيدهم هذا أعواماً عديدةً، وأزمنةً مديدةً على حسن طاعةٍ، وخير عمل.

أيها الإخوة المؤمنون حري بنا جميعاً ونحن نعيش فرحة هذا العيد السعيد بإكمال شهر الصيام والقيام، أن نتذكر أموراً مهمة لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا في يومنا المبارك هذا.

تذكروا أيها الإخوة المؤمنون وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد إخواناً لكم اخترمتهم المنيةُ وأدركهم الموتُ فلم يُدْركوا يومكم هذا، فهم في قبورهم محتجزون، وبأعمالهم مرتهنون، وبما قدمت أيديهم في هذه الحياة مجزيون. وتيقنوا أيها الإخوة أنكم إلى ما صاروا إليه صائرون، فهم السابقون، وأنتم اللاحقون، فلا تنسوهم من دعوة صالحة بأن يقيل اللهُ عثراتهم ويغفر زلاتهم ويتجاوز عن خطيآتهم.

وتذكروا أيها الإخوة المؤمنون وأنتم تعيشون فرحةَ هذا العيد السعيد بصحة وعافية إخواناً لكم أقعدهم المرض، وأعاقهم عن

مشاركتكم، فهم في المستشفيات على الأسِرَّة البيضاء يرقدون، منهم من أمضى الشهور الطويلة، ومنهم من أمضى الأسابيع العديدة، منهم من لا يُغمضُ له جفنٌ، ولا يهدأ له بال في آلامٍ متعبةٍ وأوجاع مؤلمةٍ، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من صحةٍ وعافيةٍ وسلامةٍ، ولا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوةٍ صالحةٍ أن يشفيَ مريضهم، ويزيلَ بأسهم، ويفرجَ همهم، ويكشفَ كربتهم.

وتذكروا أيها الإخوة المؤمنون وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد السعيد بأمن وأمان وراحة واطمئنان إخواناً لكم أهلكتهم الحروبُ، وأرَّقتهم الخطوبُ وأقلقتهم الفتنُ، وتسلط عليهم العدوُّ، فأُريقتْ فيهم الدماء، ورمِّلت النساء، ويُتِّم الأطفال، ونُهِبَتِ الأموال، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من أمن وأمان، ولا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوةٍ صالحةٍ بأن ينفِّسَ اللهُ كربهم، ويفَرِّج همهم، ويكبت عدوهم.

وتذكروا أيها الإخوة المؤمنون وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد السعيد بالحلل البهية والملابس الجميلة إخواناً لكم أرَّقهم الفقرُ، وأقعدَتْهُمُ الحاجةُ، فمنهم من لا يجد لباساً يواريه أو مسكناً يؤويه، أو طعاماً يشبعه ويغذيه، أو شراباً يرويه، بل منهم من أدركه حَتْفُهُ في مجاعاتٍ مهلكةٍ، وقحطٍ مفجعٍ، فاحمدوا الله على ما أنتم فيه من نعمةٍ وخيرٍ، ولا تنسوا إخوانكم هؤلاء من دعوات صالحة بأن يغني اللهُ فقيرهم، ويشبعَ جائعهم، ويكسوَ عاريهم ويسدَّ حاجاتهم ويكشفَ فاقتهم، ولا تنسوهم كذلك من مدِّ يد المساعدة لهم، إمَّا بمالٍ أو لباسٍ أو طعام أو لحافٍ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

وتذكروا أيها الإخوة المؤمنون وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد السعيد بإكمال الطاعة في رمضان وإتمام الصيام والقيام فيه إخواناً

لكم قيدتهم الذنوب، وكبَّلَتهُمُ الخطايا، فمضى المؤمنون المجدّون في طاعة الله، وتنافس الصالحون الناصحون في التقرُّب إليه، وهؤلاء في لهوهم وغيهم سادرون، وعن طاعة الله والتقرب إليه متقاعسون، وعلى المعاصي والخطايا والآثام مكبُّون، تمرُّ عليهم مواسمُ العبادةِ والمنافسةِ في فعل الخير فلا يتحركون، فاحمدوا الله على ما أمدَّكم به من توفيقه، وما هداكم إليه من التقرب إلى مرضاته، وسلوه الثباتَ على الأمر، والعزيمةَ على الرشد، ولا تنسوا إخوانكم أولئك من دعوة صالحة بأن يهديَهم اللهُ إلى الخير، وأن يردَّهم إلى الحق رداً جميلاً، وأن يصلحَ ضالهم، ويوفقَ حائرهم، ويعافيَ مبتلاهم.

وتذكروا أيها الإخوة المؤمنون وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد السعيد أنَّ الله قد أكرمَكم في شهر رمضان المبارك بتصفيد الشياطين [أي: سلسلتها وتقييدها] فلم تكُ تخلص إلى الناس فيه، وكأني بهم هذا اليوم وقد انتهى شهرُ رمضان المبارك قد انطلقوا من قيودهم، وقاموا من أصفادهم، بعزيمة وحقد، ومحاولة جادة لتعويض ما فاتهم من الإغواء والإضلال في شهر رمضان، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]. ولا يمكن لأحد أن يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، والمحافظةِ على طاعته، وتجنبِ معاصيه، والاستعاذةِ بالله منه ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨].

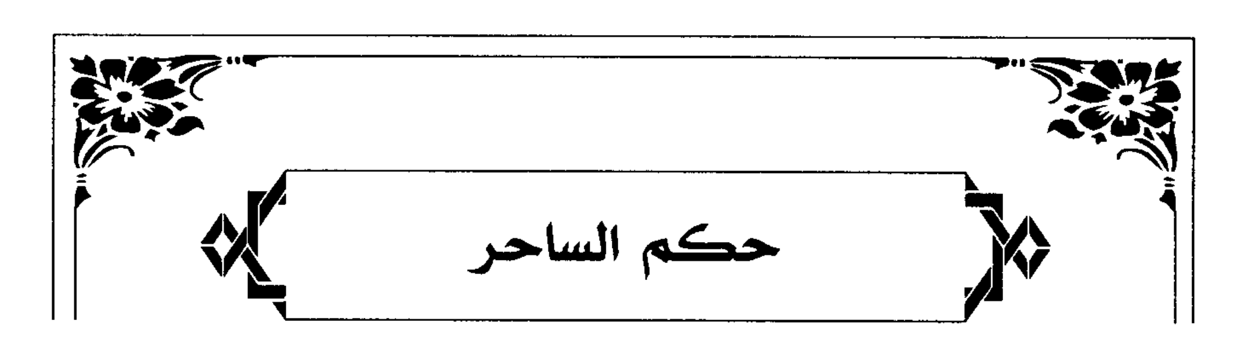
وتذكروا أيها الإخوة المؤمنون وأنتم تعيشون فرحة هذا العيد السعيد أنَّ شهر رمضان المبارك الذي ودعناه موسمٌ عظيم للتعود على الطاعة، وتقويةِ الإيمان، والاجتهادِ في العبادة، بل هو مدرسةٌ تربويةٌ إيمانيةٌ عظيمةٌ يتلقى فيه المؤمنون الدروسَ النافعة، والعظاتِ البالغةَ،

والحكمَ البليغة، فيقوى فيه إيمانُهُم، ويزدادُ يقينُهُم، وتنشرحُ صدورُهُم للطاعة، ولهذا فإنَّه قبيح بالمسلم أن يتخلى عن العبادة والطاعة بعد انقضاء هذا الشهر الكريم، كما هو الحال من بعض الناس لا يعرفون العبادة والطاعة إلا في رمضان، فيا من عرفت في رمضان أنَّ لك رباً كيف نسيته بعد رمضان؟ ويا من عرفت في رمضان أن الله أوجب عليك الصلوات الخمس في المساجد كيف جهلت ذلك أو تجاهلته بعد رمضان؟ ويا مَنْ عرفت في رمضان أنَّ أمامك جنة وناراً، وثواباً وعقاباً كيف نسيت ذلك بعد رمضان؟ ويا من كنتم تملؤون المساجد في رمضان وتتلون القرآن كيف هجرتم المساجد والقرآن بعد رمضان؟ سئل بعضُ السلف عن حال مثل هؤلاء، فقال: «بئس القوم لا يعرفون الله إلا في رمضان».

أيها الإخوة المؤمنون، ولذا ينبغي أن نتذكر أنَّ ربَّ الشهور واحدٌ؛ فربُّ رمضان هو ربُّ شوال وشعبان وسائر الشهور، والواجبُ على المسلم أن يعبد الله ويقبل على طاعته ويبتعدَ عن معاصيه في كل وقت وحين، كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

أيها الإخوة المؤمنون تقبل الله منا ومنكم الصيام والقيام، ورزقنا وإياكم حسن الختام، وجعلنا وإياكم من أهل الجنة دار السلام، وأعاد علينا وعليكم هذا العيد السعيد أعواماً عديدةً، وأزمنةً مديدةً، ونحن في أمنٍ وأمانٍ، وبرٍّ وإيمانٍ، وطاعةٍ وإحسانٍ، وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.





حكم الساحر

إن من الكفريات الظاهرة والشركيات الخطيرة التي جاء الإسلام بنقضها ومحاربتها «السحر»، والسحر هو عبارة عن عزائم ورقى وعقد تؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه، ويفعل بالناس شروراً كثيرة، ويلحق بهم أضراراً خطيرة، وله من المفاسد والأضرار والمخاطر ما الله به عليم، ومن أعظم أخطاره ومفاسده أنه لا يتم ولا يكون إلا مع الكفر بالله العظيم، فالسحر لا يجامع الإيمان، ولا يكون الساحر مؤمناً، ومن سحر فقد كفر بالله العظيم، والمراد بالسحر هنا ما كان من قبل الشياطين وعن طريق عبادتها وعبادة الكواكب.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢].

فهذه الآيات الكريمات دلت على كفر الساحر من وجوه كثيرة، بيَّنها أهل العلم منها:

أولاً: نفي الكفر عن نبي الله سليمان عليه السلام في معرض اتهامه

بالسحر في قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فدل ذلك على أن من كان ساحراً فهو كافر.

ثانياً: التصريح بكفر الشياطين منوطاً بتعليمهم الناسَ السحرَ.

ثالثاً: تحذير الملكين طالبَ تعلم السحر بأنه كفر.

رابعاً: نفي النصيب في الآخرة عن متخذه، ونفي النصيب بالكلية لا يكون إلا للكافر والعياذ بالله.

خامساً: قوله تعالى في تمامها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝١٠٣﴾ [البقرة: ١٠٣]. وهذا من أصرح الأدلة وأوضحها على كفر الساحر بنفي الإيمان عنه بالكلية، فإنه لا يقال للمؤمن المتقي: (ولو أنه آمن واتقى) وإنما قال تعالى ذلك لمن كفر وفجر وعمل بالسحر واتبعه.

وقد صرح بذلك أئمة السلف من الصحابة والتابعين، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من سحر فقد أشرك»، وقال ابن جريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجترئ على السحر إلا الكافر»، والنقول عن السلف في هذا المعنى كثيرة.

وحكم الساحر القتل، وقد جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ: وهم عمرُ بن الخطاب، وحفصةُ أمُّ المؤمنين، وجندبٌ الأزدي رضي الله عنهم أجمعين.

فعن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر(١).

وجاء أيضاً: أن حفصة زوجَ النبي ﷺ قتلت جارية لها

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٦) بسياق مختلف، ولم يذكر قتل السواحر. وأخرج نحوه أبو داود (٣٠٤٣)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٢٤).

سحرتها، وكانت قد دبرتها، فأمرت بها فقتلت[1].

روى البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النهدي قال: كان عند الوليد رجل يلعب، فذبح إنساناً فعجبنا فأعاد رأسه، فجاء جندب الأزدي فقتله، وفي رواية أنه قال: إن كان صادقاً فليُحْيِ نفسه.

وقد اختلف أهل العلم في الساحر هل يستتاب أو يقتل بدون استتابة؟ وظاهر عمل الصحابة في الآثار المتقدمة أنه يقتل من غير استتابة.

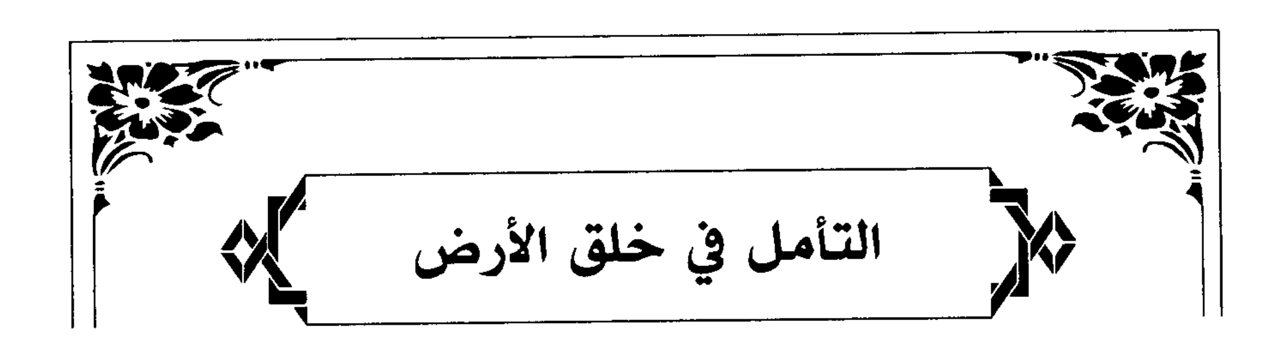
إن قتل الساحر وإزهاق روحه فيه تخليصٌ للمجتمع المسلم من أداة شر وتخريب وفتك بالمسلمين، فالساحر شروره كثيرة وأخطاره عديدة وجنايته على الإسلام والمسلمين كبيرة، فهو يشتت رابطة المجتمع المسلم ويخلخل كيانه، ويفرق بين الأسر المسلمة، وينشر العدواة والبغضاء بين المسلمين، ويزعزع أمن المسلمين، ويخرب ديارهم، وينقلهم إلى الحضيض والهلكة.

وإننا لنحمد الله تعالى ونثني عليه الخير كله، على ما قيَّضه لولاة الأمر في البلاد ـ أيدَّهم الله وحرسهم، وزادهم من توفيقه ـ من تتبُّع لهؤلاء المفسدين وقطع لدابرهم واستئصال لشأْفَتِهِم وشرورهم، والواجب على عموم المسلمين التعاونُ مع ولاة الأمر في ذلك بالإبلاغ عمن يعلم عنه شيء من ذلك للقضاء عليه وتخليص المسلمين من شره، مع الدعاء لولاة الأمر بالتوفيق والسداد والإعانة على الخير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة: ٣٣].

---

(١) رواه مالك (١٥٨٥) ـ رواية يحيى الليثي ـ، عن محمد بن عبد الرحمٰن بن سعد بن زرارة بلاغاً.



التأمل في خلق الأرض

إنَّ من آيات الله العظيمة هذه الأرض التي نمشي في مناكبها ونسير في فجاجها، ونعيش على ظهرها، فإنَّ فيها من الآيات العظيمة والدلالات الكريمة على كمال قدرة خالقها وتمام حكمة مبدعها؛ ولذا فقد أكثر الله من ذكرها في القرآن، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها والتأمل في آياتها وعجائبها، ليزداد بذلك إيمانهم ويقوى يقينهم. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٨]، ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ [النبأ: ٦]، ويقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ويقول: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٠]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومن يتأمل الأرض وكيف خلقت يجدها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً، وذلَّلها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

ثم إنَّه سبحانه أرساها بالجبال فجعلها أوتاداً لها تحفظها لئلَّا

تميد بهم، فأحكم جوانبها بالجبال الراسيات الشوامخ الصُّم الصلاب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٦ ـ ٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ [النازعات: ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

ثم إنَّه سبحانه وسَّعَ أكناف الأرض ودحاها فمدَّها وبسطها وطحاها فوسَّعها من جوانبها، ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الإنس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٧ ـ ٨]. ثم إنَّه سبحانه جعلها كفاتاً للأحياء والأموات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦]، فهي تضمُّهم على ظهرها ما داموا أحياء ثم تضمُّهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء، وبطنها وطن للأموات. ثم إنَّه سبحانه ميَّز بين قطعها وفضَّل بعضها على بعض بالزروع المختلفة والنباتات المتنوعة ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد: ٤].

ومن آيات الله العظيمة أنَّك ترى القطعة من الأرض هامدة خاشعة، لا زرع فيها ولا نبات، فإذا أنزل عليها الكريمُ الرحمٰنُ الماءَ اهتزَّت وتحرّكت، وربت فارتفعت، واخضرَّت وأنبتت من كلِّ زوج بهيج في المنظر والمخبر ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

ومن آيات الله العجيبة البحارُ المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خلجان من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى إنَّ المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمورة بالماء. ولولا إمساكُ الرَّبِّ تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسُه الماءَ لطفح على الأرض وعلاها كلَّها، ولنا في التاريخ في هذا الباب عبرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

ثم إنَّه من لطف الله سبحانه بعباده في خلق الأرض أن جعلها واقفة ساكنة لتكون مهاداً ومستقرّاً للحيوان والنبات والأمتعة، ويتمكَّن الناس والحيوان من السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوئهم من أعمالهم. ولو كانت رجراجة منكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قراراً ولا هدوءاً ولم يثبت لهم عليها بناء، ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة، وكيف يتهنَّؤُون بالعيش؟! والأرض ترتجُّ من تحتهم، وتهتزُّ أسفل منهم.

وخذ العبرة في ذلك بما يصيب الناس في بعض الأحيان من الزلازل على قلَّة مكثها، كيف تصيِّرهم إلى ترك منازلهم والهرب من أوطانهم بل إنها إذا اشتدت دمرت المساكن وأهلكت الناس، وقد نبَّه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤] أي واقفة ساكنة غير متحرِّكة أو رجراجة. ولهذا فإنَّ الله سبحانه قد يخوِّف عباده بأن يُحْدِثَ فيها الزلازل العظام، فَيَحْدُثُ من ذلك للعباد الخوفُ والخشيةُ والإنابةُ والإقبال على الله، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. قال

بعض السلف ـ وقد زلزلت الأرض ـ: إنَّ الله يستعتبُكم.

واعلموا أنَّ الله خلق الإنسان ذلكم المخلوق العجيب، وأخرجه من الأرض وأنبته منها ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح: ١٧ ـ ١٨].

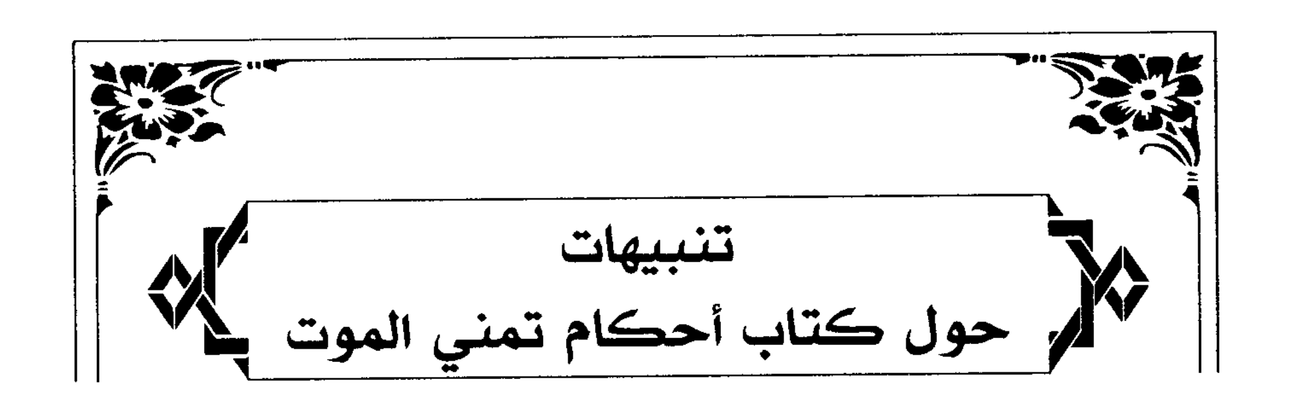
ثم إنَّه استخلف هذا الإنسان في الأرض وسخرها له، لينظر كيف يعمل؟ قال سبحانه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩﴾ [فاطر: ٣٩].

وميَّز سبحانه بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين في الأرض، فأعدّ للمؤمنين الأجور العظيمة والعطايا الكريمة، وأعدَّ للمفسدين العذاب الأليم ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [صٓ: ٢٨].

والواجب على كلِّ إنسان أن ينظر إلى حاله ونفسه فوق أرض الله ماذا يعمل؟ وماذا أعدَّ للقاء ربِّ الأرض وربِّ السمٰوات وربِّ الخلق أجمعين؟! والكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتَمنَّى على الله الأماني.

نسأل الله الكريم أن يحفظنا وإيَّاكم من القلاقل والفتن والزلازل والمحن ما ظهر منها وما بطن، وأن يَمنَّ علينا جميعاً برضاه، وأن يوفقنا لهداه، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنَّه هو الغفور الرحيم.





تنبيهات حول كتاب أحكام تمني الموت

هذه ملحوظات حول كتاب (أحكام تمني الموت)؛ المنسوب لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، على ضوئها أرى أن في نسبته إليه نظراً:

أولاً: أعتمد في طبع هذا الكتاب على نسخةٍ مصورةٍ في المكتبة السعودية بالرياض برقم (٨٦/٧٧١)؛ عن أصلٍ مخطوط في مكتبة لايدن في هولندا برقم (٢٤٧٩)، وهذا أمرٌ مستغرب إذ أن أُصول كتب الشيخ موجودة عند أبنائه وطلابه في هذه البلاد، ويندر أن يوجد منها شيء خارجها.

ثانياً: أن كتب الشيخ؛ غالباً لها أُصول كثيرة بقلم الشيخ أو أبنائه أو طلابه، أمّا هذا الكتاب فلم يوجد له إلا أصل واحد؟!.

ثالثاً: أن هذه المخطوطة لم يكتب عليها (اسم مؤلفها أو ناسخها أو تاريخ نسخها) بالخط الذي كتبت به، وإنما كتب عليها بخط مغاير لخطها: (هذا خط شيخ الإسلام... محمد بن عبد الوهاب...)، فلعل كاتب هذه العبارة عندما وقف على هذه المخطوطة توهم أنها بخط الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، فنسبها إليه.

رابعاً: من قرأ هذا الكتاب وله دراية بكتب الشيخ قطع بأنه ليس من تأليفه لأن كاتبه اعتنى فيه بجمع الأحاديث والآثار المتعلقة بالموت وأهواله دون تمحيص لها أو انتقاء، وقد وقفت فيه على جملة من

الأحاديث الضعيفة والموضوعة والحكايات الغريبة جمعت فيه مع غيرها من الأحاديث الصحيحة دون ترتيب أو تبويب، وهذا ليس من أُسلوب الشيخ ولا على طريقته في مؤلفاته التي تمتاز بالإتقان والدقة، وبالمقارنة بين هذا الكتاب وبين كتب الشيخ تُدرك هذه الحقيقة.

خامساً: ليس في هذا الكتاب ما يتعلق بتمني الموت إلا في أربع صفحات من مقدمته، أما بقية الكتاب فهو عن عذاب القبر وأهواله وغير ذلك مما ليس له صلة قوية بعنوان الكتاب. وليس من منهج الشيخ ولا من منهج المحققين من أهل العلم أن يكون عنوان كتبهم مخالفاً لمضمونها.

سادساً: هذا الكتاب أشبه ما يكون أسلوبه وطريقته بمؤلفات السيوطي، وكدت أقطع بأنه له؛ لولا أني رأيت مُؤلفه نقل غن السيوطي في صحفة ٣٦، فقال: (قال السيوطي: . . . .).

ومع هذا فقد ظهر لي بعد أن الكتاب مختصر من كتاب السيوطي (شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور)، فقد قارنت بينهما فوجدت أن جميع الأحاديث الموجودة فيه موجودة في كتاب السيوطي على الترتيب نفسه، مع حذف للأبواب وجملة من الأحاديث.

والموضع الذي قال فيه: (قال السيوطي: . . . .)، بدله في شرح الصدور (قلت: . . .).

سابعاً: جميع من ترجم للشيخ ـ فيما اطلعت عليه ـ لم يذكر أحد منهم هذا الكتاب ضمن مؤلفاته رحمه الله، عدا بعض المعاصرين ممن اغتر برؤية هذه المخطوطة منسوبة إلى الشيخ، أو اعتمد على نشره ضمن مجموع مؤلفات الشيخ، وليس في هذا ما يدل على أنه له لا سيما وأن محقق الكتاب لم يقدم دراسة عن الكتاب يبين فيها صحة نسبته إلى مؤلفه.

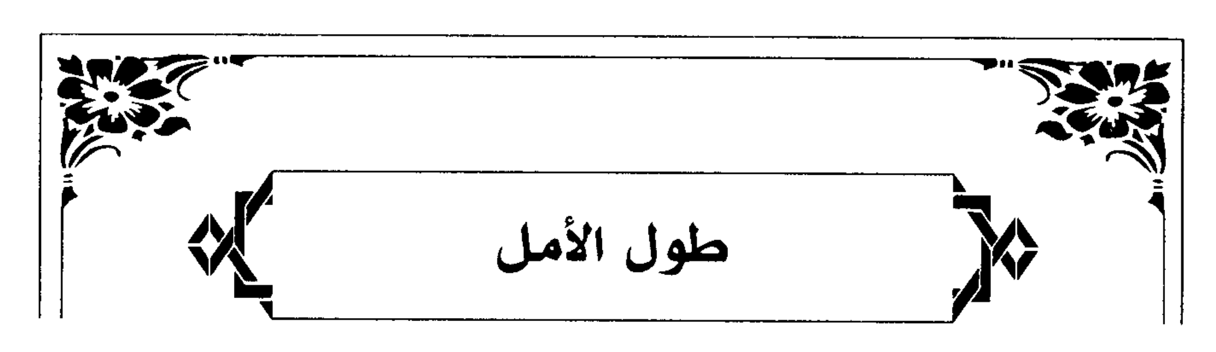
ثامناً: أن منهج الشيخ في دعوته التحذير من البدع والخرافات، وأما هذا الكتاب فمليء بالأدلة الباطلة والحكايات الغريبة التي تدعو إليها.

ومن الأمثلة على ذلك: رفع الصوت بالدعاء للموتى عند قبورهم، وتلقين الميت الشهادتين عند دفنه، وأن الموتى يسمعون الأحياء ويتخاطبون معهم، وأن القبور يؤذن فيها ويسمع الأحياء ذلك، وإرسال الأكفان الجديدة مع من يموت إلى أهل القبور، وغير ذلك من البدع الكثيرة التي ما أنزل الله بها من سلطان، فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن تأمل كتب الشيخ ومؤلفاته وجد فيها التحذير من هذه البدع وأمثالها، والإنكار على فاعلها، فلا يتصور ممن كان كذلك أن يذكر هذه الأدلة الباطلة والحكايات الغريبة الداعية إلى البدع، ثم لا يبين بطلانها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.





طول الأمل

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝﴾ [فاطر: ٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**». وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء. وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك[1].

إن في هذا الحديث الشريف، الحثَّ على تقصير الأمل في الدنيا، فإن المؤمنَ لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً فيطمئن فيها. ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر، همه جمع جهازه للرحيل.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثّر في جنبه. فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً؟ فقال: «**ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة، ثم راح وتركها**»[2].

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن الحسن أنه قال: بلغني أن

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٣٦).

رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**إنما مثلي ومثلكم في الدنيا، كمثل قوم سلكوا مفازةً غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقي، أنفدوا الزاد وحسروا الظهر، وبقوا بين ظهراني المفازة، لا زادٌ ولا حمولةٌ، فأيقنوا بالهلكة. فبينما هم كذلك، إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه ماء، فقالوا: إنَّ هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء علامَ أنتم؟ قالوا: على ما ترى، قال: أرأيتم إن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ما تجعلون لي؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً. قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً، قال: فأوردهم ماء ورياضاً خضراً. قال: فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء الرحيل، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، ورياض ليست كرياضكم. قال: فقال جلُّ القوم وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نصنع بعيش خير من هذا؟! وقالت طائفةٌ وهم أقلُّهُم: ألم تعطوا هذا الرجلَ عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئاً، وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره، فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم، فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل**»[(١)].

فهذا المثلُ العظيمُ، في غايةِ المطابقة لحاله ﷺ مع أمته.

فإنه أتاهم، والعربُ إذ ذاك أذل الناس وأقلُّهُم وأسوأهم عيشاً في الدنيا والآخرة، فدعاهم إلى سلوك طريق النجاة، وظهر لهم من براهين صدقه كما ظهر من صدق أمر الذي جاء إلى القوم الذين في

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٥٠٧)، والرامهرمزي في «الأمثال» (٢٣) عن الحسن مرسلاً.

المفازة وقد نفد ماؤهم، وهلك ظهرهم فدلهم على الماء، والرياض المعشبة، فاستدلوا بهيئته وجماله وحاله على صدق مقالته فاتبعوه، ووعد من اتبعوه بفتح بلاد فارس والروم وأخذ كنوزهم.

وحذرهم من الاغترار بذلك، والوقوف معه، وأمرهم بالاجتزاء من الدنيا بالبلاغ، والجِد والاجتهاد في طلب الآخرة والاستعداد لها. فوجدوا ما وعدهم به كله حقاً، فلما فُتحت عليهم الدنيا كما وعدهم، اشتغل أكثرُ الناس بجمعها واكتنازها والمنافسة فيها، ورضوا بالإقامة فيها والتمتع بشهواتها، وتركوا الاستعداد للآخرة التي أمرهم بالجد والاجتهاد في طلبها.

وقد قَبِلَ قليل من الناس وصيته في الجد في طلب الآخرة والاستعداد لها، فهذه الطائفة القليلة نجت ولحقت بنبيها ﷺ في الآخرة، حيث سلكت طريقته في الدنيا، وقبلت وصيته ففعلت ما أمر به.

وأما أكثرُ الناس فلم يزالوا في سكرة الدنيا والتكاثر فيها، فشغلهم ذلك عن الآخرة حتى فاجأهم الموتُ بغتة، فهلكوا وأصبحوا ما بين أسير وقتيل(١).

ومن أبلغ الأمثلة للحياة الدنيا ما ضربه رسول الله ﷺ، كما في الحديث. عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ علَى الْمِنبَرِ فقَالَ: «**إِنَّمَا أَخْشَىٰ عَلَيْكم مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ برَكَات الْأَرْضِ**». ثُمَّ ذَكَر زَهْرةَ الدُّنْيا فَبدَأَ بِإِحْدَاهُمَا وَثَنَّى بِالأُخْرَى فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يا رسُولَ اللهِ، أَوَ يَأْتِي الْخَيْرُ بالشَّر؟ فَسَكَتَ عنْهُ النَّبيُّ ﷺ، قُلْنَا: يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَسَكَتَ النَّاسُ كَأَنَّ عَلى رُؤُوسهم الطَّيْرَ. ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْههِ الرُّحَضاءَ فَقَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ آنِفاً؟ أَوَ خَيرٌ هُوَ؟**

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص٣٥٨ ـ ٣٥٩).

ـ ثلاثاً ـ إنَّ الْخيرَ لا يأْتِي إلَّا بِالْخيْرِ. وَإِنَّهُ كُلُّ ما يُنْبِتُ الرَّبيعُ ما يَقتُلُ حَبَطاً أَو يُلِمُّ، إلَّا آكِلَةَ الخَضِرِ كُلَّما أَكَلَتْ، حَتَّى إِذَا امْتَلأَتْ خاصِرَتاها استَقْبَلَتِ الشَّمْسَ، فَثَلَطَتْ وَبالَت ثم رَتعتْ. وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرةٌ حُلْوةٌ، وَنِعْمَ صاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحقِّهِ فَجَعَلَهُ فِي سَبيلِ اللهِ والْيَتامى والْمَساكِينِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهَا بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالآكِلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شهيداً يَوْمَ الْقِيامَة»(١).

إن الدنيا لا تذم لذاتها، وإنما يذم فعل العبد فيها؛ فالدنيا قنطرة ومعبر إلى الجنة أو إلى النار، فهي مزرعة الآخرة، ومنها زاد الجنة. وخير عيش ناله أهل الجنة، إنما كان بسبب ما زرعوه في الدنيا، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

إن الذم والوعيد إنما ورد في حق من آثر الدنيا على الآخرة، فصارت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

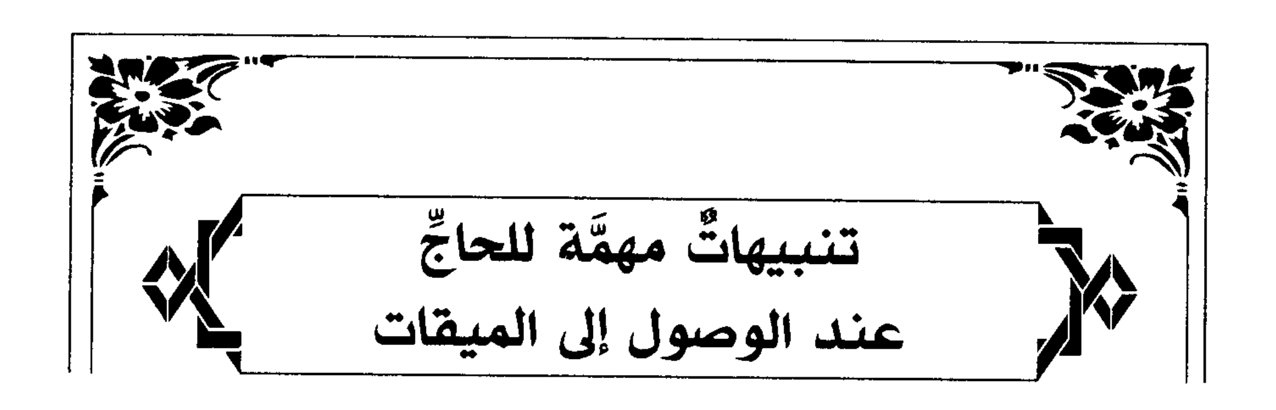
فالمطلوب من العبد الاعتدالُ في العمل للدنيا والآخرة، لا يشتغل بالدنيا ويترك الآخرة، ولا يتخلى عن الدنيا ويتركها بالكلية فيضرَّ بنفسه وبمن يعول، أو يصبح عالة على غيره.

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا.



---

(١) رواه البخاري (٢٨٤٢)، ومسلم (١٠٥٢).



تنبيهاتٌ مهمَّة للحاجِّ عند الوصول إلى الميقات

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسَلين، نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعد:

فإنَّا نُهنِّئك أخي الحاج على إكرام الله لك وتيسيره القدومَ لأداء هذه الطاعة العظيمة والعبادة الجليلة، حجِّ بيت الله الحرام، فها أنت الآن قد وصلتَ إلى الميقات بداية الانطلاق وأوَّل المسير إلى رحلةٍ عظيمة وسفر كريم، إلى بيت الله العتيق، ونسأل الله أن يُيسِّر لك سفرَك، ويتقبَّل منك طاعتَك، ويهديك سواء السبيل. وبهذه المناسبة نذكِّرُك ـ أخي الحاج ـ ببعض التنبيهات المهمة التي يحسن بك أن تتذكَّرها وأنت في الميقات:

١ ـ عليك أخي الحاج أن تبدأ حجَّك بالتوبة النَّصوح إلى الله ﷻ من كلِّ ذنب وخطيئة.

٢ ـ وأن تقصد بحجِّك وعمرتك وجهَ الله والدارَ الآخرة والتقرُّبَ إليه بما يُرضيه من صالح الأقوال والأعمال.

٣ ـ تعلَّم ـ أخي الحاج ـ ما يشرع لك في حجِّك وعمرتك؛ لتكون في أَعمالك كلِّها على هدى وبصيرة، ولكي لا تقع في أمور قد تُخلُّ بحجِّك أو تُنقص أجرَه.

٤ ـ أَكثِر من الذِّكر والدُّعاء وتلاوة القرآن وسماع الأشرطة النافعة وقراءة الكتب المفيدة.

٥ ـ يُستحبُّ لك ـ أخي الحاج ـ قبل الدخول في الإحرام الاغتسالُ والتطيُّبُ، وأن تتعاهد شاربَك وأظفارَك وعانتَك وإبطيك، فتأخذ منها ما تدعو الحاجةُ إلى أخذه، أمَّا اللحيةُ فيحرُم حلقُها.

٦ ـ ويُستحبُّ للرَّجل أن يُحرمَ بإزار ورداءٍ أبيضين نظيفين، وأمَّا المرأة فتُحرِمُ بما شاءت من الثياب، لكن عليها أن تتجنَّب ثيابَ الزينة.

٧ ـ السنَّةُ في الاضطباع (وهو كشف الكتف الأيمن) أن يكون ذلك عند الطواف بالبيت، فعليك أن تغطي كتفيك طوال فترة الإحرام، إلَّا عند الطواف بالبيت (طواف القدوم أو العمرة) فقط.

٨ ـ يجوز لك أثناء الإحرام لبسُ الساعة والخاتم والنظارة والحزام والمحفظة والأحذية، ولو كانت من المخيط، ولا بأس من استعمال الشمسية.

٩ ـ لا يجوز للرَّجل المحرم لبسُ السراويل والفنايل والثياب والطاقية والعمامة والقميص.

١٠ ـ لا يجوز للمرأة المحرمة أن تلبس النقابَ ولا القفازين، ولكن يجب عليها في حال الإحرام وغيره أن تستر وجهها إذا كانت بحضرة الرجال الأجانب.

١١ ـ لا يجوز بعد الدخول في الإحرام قصُّ الشعر ولا تقليمُ الأظافر، ولا مسُّ شيء من الطِّيب.

١٢ ـ لا يجوز لِمَن أراد دخول مكة لحجٍّ أو عمرة أن يتجاوز الميقات بدون إحرام.

١٣ ـ الأنساك المشروعة ثلاثة: التمتع والقران والإفراد، وأفضلُها التمتع، فإذا أردتَ الإحرام بالتمتع تنوي العمرةَ وتقول: «لبَّيك

اللَّهمَّ عمرة». وإذا أردتَ القرانَ تنوي العمرة والحجَّ وتقول: «لبَّيك اللَّهمَّ عمرة وحجّاً». وإذا أردتَ الإفراد تنوي الحجَّ وتقول: «لبَّيك اللَّهمَّ حجّاً».

١٤ ـ يُشرعُ لِمَن أحرم بحجٍّ أو عمرة وهو يخشى من أمر يمنعه من إتمام النُّسُك كمرض أو نحوه أن يشترطَ، وذلك بأن يقول بعد النيَّة: «فإن حبسني حابس فمحِلِّي حيث حبستني». وفائدته جواز التحلُّل من النُّسُك الذي أحرم به إذا وُجد المانع، ولا شيء عليه.

١٥ ـ تجنَّب ـ أخي الحاج ـ ما نهاك الله عنه من الرَّفث والفسوق والجدال والعصيان، واحذر من إيذاء المسلمين بالقول أو الفعل.

١٦ ـ إن كنتَ مبْتَلًى بشرب الدخان، فإنَّها فرصتُك لتودِّعَه إلى غير رجعة. وإلى متى تستمر في شربه وأنتَ لَم تستفد منه إلَّا الوقوع في الذنب، وإتلاف مالك والإضرار بصحَّتك وإيذاء إخوانك؟!

١٧ ـ احذر ـ وفَّقك الله ـ من التشاغل في هذا المقام وغيره بأخذ الصُّوَر التذكارية، وتذكَّر أنَّ النبيَّ ﷺ قال في هذا المكان فيما صحَّ عنه: **«اللَّهمَّ حجَّةً لا رياء فيها ولا سمعة»**[1].

١٨ ـ أَكثِر ـ أخي الحاج ـ في طريقك إلى مكة من التلبية: «لبَّيك اللَّهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمد والنِّعمةَ لك والملكَ لا شريك لك».

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٩٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٣٧).

١٩ ـ والسنَّة في التلبية أن يُلبِّي كلُّ حاجٍّ بمفرده، أمَّا التلبيةُ الجماعيَّةُ فليست من هدي النَّبيِّ ﷺ.

٢٠ ـ تذكَّر ـ أخي الحاج ـ بأنَّ في المواقيت أماكن مخصَّصة لتوعية الحُجَّاج وتوزيع الرسائل المتعلِّقة بالحجِّ، والإجابة على الأسئلة والاستفسارات.

رزقنا الله وإيَّاكم التوفيق والقبول، وألهمَنا وإيَّاكم الهدى والسداد.

وصلَّى الله وسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الفهرست

الموضوع	الصفحة